ديل كارنيجي

العظماء

٢٥ شخصية خلدها التاريخ

تقديم وتلخيص

حازم عوض

الكتاب: العظماء

الكاتب: ديل كارنيجي

تقديم وتلخيص: حازم عوض

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

كارنيجي، ديل

العظماء/ ديل كارنيجي، تقديم وتلخيص: حازم عوض – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٠ ص، ١٨*٢١ سم.

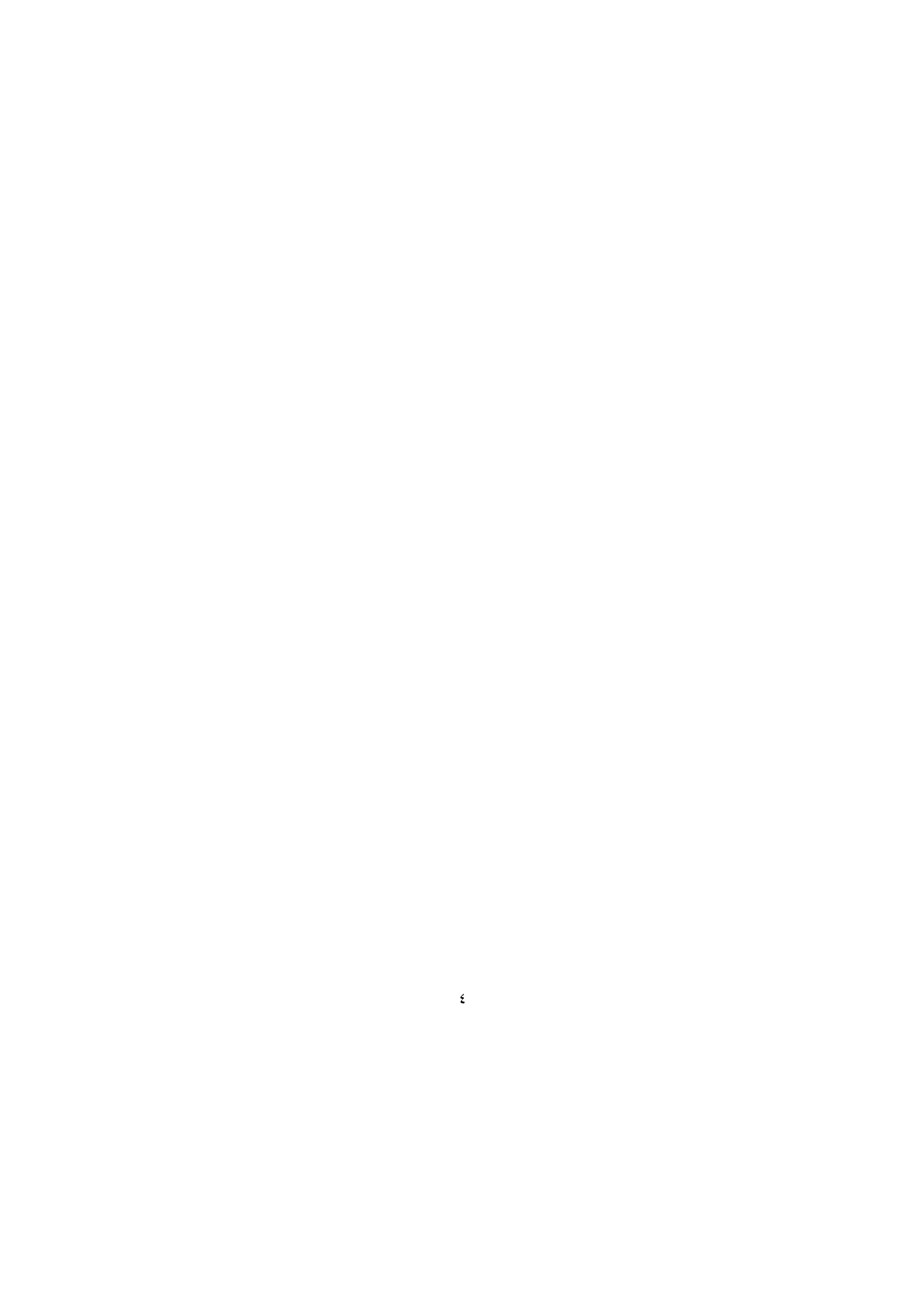
الترقيم الدولي: ٧ – ٥٨ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١١٠٤٣ / ٢٠٢٠

العظماء

٢٥ شخصية خلدها التاريخ





تقديم

ربما كان هذا الكتاب هو الوحيد من بين كتب ديل كارنيجي الذي يتكون عنوانه من كلمة واحدة هي " العظماء" أو "الخالدون"، فكل كتبه الأخرى يمثل عنوانها جملة كاملة، وغالبًا ما تكون استفهامية مثل "كيف تكسب الأصدقاء؟" أو "كيف تحقق هدفك؟" ربما لذلك أردف العنوان الرئيسي للكتاب بعنوان آخر فرعي شارحا له، فالكتاب يتضمن هذا العدد من السير لشخصيات قديمة وحديثة، شرقية وغربية، أبدعت أدبا أو مارست السياسة، تولوا شئون الحكم أو تحكموا في عوالم الاقتصاد، وكانوا كلهم من الناجحين، فكأن المؤلف يرى في النجاح سرا للخلود، ويدعو لاقتفاء أثرهم بإعادة سرد سير حيواتهم. فلعل القارئ يستلهم منهم أسرار النجاح.

ويبدأ الكتاب بسيرة كارينجي نفسه، فهو واحد من هؤلاء الخالدين، فيستعيد الكتاب في المقدمة سيرة حياته، ويصوغها بنفس طريقة صياغة كارينجي نفسه لسير الخالدين الخمسة والعشرين، فيبدأ بطرفة روتها زوجة الكاتب، حين سُئلت يوما عن أهم ما يضايقها من زوجها، فأجابت بأنه أحيانا لا يقوى على المثابرة على اتباع تعاليمه ومبادئه.. وأردفت ضاحكة:

– إنني كلما رأيته ينساق للغضب أو يحيد عن الحكمة والروية،

أطالبه بأن يرد لي الدولارات الستة والسبعين التي أنفقتها على الدراسة في معهده، لأنه - وهو صاحب التعاليم التي دفعت من أجلها هذا المبلغ - لا يثابر على اتباعها، وفي تهاونه فيها اثبات لعدم جدواها!

ويسمع كارنيجي هذا القول فيهز كتفيه ويقول ضاحكا بدوره:

- إنني بشر، لا أتمالك نفسي أحيانا من أن أغضب أو أسخط.. ولعل لي عذرا في أن نبي الصين "كونفوشيوس" كان يشكو - رغم حكمته وفلسفته - من أنه لا يستطيع التمسك دواما بما كان يبشر به من تعاليم ومبادئ.

فهكذا يحكي بشكل غير مباشر عن اللقاء الأول بين الزوجين وكيف حدث؟ ويوضح أنه بشر قد يحتاج لمن ينصحه ماذا يفعل؟ بالرغم من إنه هو من ينصح الناس بالتصرفات الواجبة في مواقف مختلفة يواجهونها في حياتهم.

إن الرسالة التي لا يكل "كارنيجي" أحيانا عن مواصلة اتباع تعاليمها، فهي رسالة "النجاح في الحياة".. وهي ليست وليدة البحث في الكتب، بقدر ما هي وليدة التجارب العملية في الحياة، فقد نشأ "كارنيجي" وعوامل الفشل تحوطه من كل جانب، وُلد ديل كارنيجي في الرابعِ والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٨م في مدينة ميسوري بالولايات المتحدة، ونشأ في كنف أسرةٍ فقيرة، أما حياته الزوجية فيقال بأنه قد تزوّج مرتين لكنهما فشلا وانتهيا إلى الانفصال، لذا اعتبر نفسه

في شبابه أنه "الأتعس" حيث كان يعاني من الفقر ويشعر بالإحباط، ويفكر في الانتحار مرات عديدة، لكنه أصبح الرجل الذي يلجأ إليه كبار رجال الأعمال في نيويورك وأشهر شخصيات أمريكا لطلب توجيهاته ونصائحه العملية فيما يتعلق بكيفية التعامل مع الناس.

نشأ "كارنيجي" خجولا من فقره من ملابسه الرثة، من عقدته في الطفولة وهي "الخجل"، لكنه استطاع أن يصبح أهم كاتب، ومؤسس لعلم التنمية البشرية وأصبح لديه "معهد كارنيجي" للعلاقات الإنسانية وعشرات من الكتب، التي أثرت على فكر ملايين من البشر، ولفرط تواضعه كان دائما يقول بأنه لم يأت قط بشيء جديد وإنه فقط يذكر الناس بالمبادئ القديمة المعروفة التي جاءت على ألسنه الأنبياء والحكماء، وبالرغم من كونه رائدا لعلوم التنمية الذاتية في مجال التدريب الجديد، وحديثه الدائم عن السعادة، ودعاواه المتكررة بضرورة الابتعاد عن القلق وبناء العلاقات الاجتماعية ؛ إلا أنه يقال بأنه مات منتحراً، إلا أن شركته تؤكد وفاته بعد معاناةٍ مع مرض سرطان الدم .

ومن الطبيعي أن يكون من تحدث عن طرق السعادة في الحياة أن يكون سعيداً؛ فكيف لشخص مثل ذلك أن يكون منتحراً؟ هذا ما تريد أن تبرهن عليه شركته وإبعاد الشبهات عنه، أما فيما يتعلق بتاريخ وفاته بغض النظر عن سببه فقد غادر الحياة في نيويورك مطلع شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥م.

وقد اتسم كارينجي بسمات نفسية من شأنها أن تبعد صاحبها عن

اليأس والقنوط ناهيك عن الإقدام على الانتحار، ومنها صفة التواضع، ويدلل عليها المترجم في المقدمة بقوله " وشاء له تواضعه أن يتجاهل أنه هو الآخر صار الآن مليونيرا، وسئل مرة من أين استمد تعاليمه ومبادئه، فأجاب في تواضع بأنه لم يأت بجديد، ولم يفعل أكثر من أن عمد إلى تذكير الناس بالمبادئ والحكم القديمة.. واستطرد قائلا: "مثال ذلك أنني أعلم الناس كيف يتخلصون من القلق، فهل تدري ما الذي يخلصهم منه؟.. اتباع حكمتين درج الناس على ترديدهما دون أن يفطنوا لما وراءهما من معان: "لا تعبر جسرا قبل أن تصل إليه" و"لا تبك على اللبن المراق"، فما الجديد في هذا؟

أما عن طريقة كارينجي في تأليف هذا الكتاب، فقد اتبع طريقة فريدة، فكان يكلف كل واحد من سكرتيريه الذين يعدون بالعشرات، بأن يطالع كل ما كتب عن كليوباترة مثلا من كتب ومجلدات، بجميع اللغات، ثم يدون له في صفحات معدودة أهم وأطرف ما أجمعت عليه المصادر من حقائق تاريخية عنها. ومن هذا التقرير يصوغ كارنيجي سيرة الشخصية التي يكتب عنها، بأسلوبه الشائق، وهكذا تستطيع أن توقن أن الصفحات القليلة التي يتضمنها هذا الكتاب عن كل شخصية من المترجم لهم، هي زبدة عشرات الكتب والمجلدات".

يبدأ الكتاب بسيرة لورد بايرون أمير الشعراء الإنجليز، وكان يعاني اليتم والفقر وقسوة الأم واعتلال الصحة، لكن ذلك كله لم يمنعه من أن يصير

أعظم شعراء زمانه، وقد غير تأثيره اتجاه الأدب في القرن التاسع عشر تغييرا كاملا.

كذلك نشأ هـ.ج. ويلز فقيرا معدما لكنه لم يستسلم لظروفه، فعمل لينفق على نفسه، والتحق بالجامعة ثم عمل بالتدريس والصحافة قبل أن يتفرغ لكتابة أدب الخيال العلمي، أما ليو تولستوي فقد مات والديه وهو في الثامنة من العمر لكنه واصل حياته وإنجازاته ليصبح واحدا من أهم الروائيين في العالم، وهو نفس العمر الذي ذاق فيه الكاتب الإنجليزي سومرست موم مرارات اليتم والفقر، أيضا نشأ الأمريكي "إدجار ألان بو" يتيما، وقد عاش برنارد شو حياة فقيرة وصعبة، فكان يكتب أن الفقر مصدراً للشرور والآثام، ولم يستطع إكمال تعليمه النظامي لكنه فاز بجائزة نوبل في الآداب، والأمريكي الساخر مارك توين التحق في صباه بمدرسة كانت عبارة عن كوخ خشبي من جذوع الأشجار، وظل في هذه المدرسة إلى أن بلغ الثانية عشرة، فكان ذلك هو كل التعليم المدرسي الذي حصل عليه في حياته، ومع ذلك فإن جامعتي "اكسفورد" و"ييل" منحتاه درجات الشرف. والموسيقار موتسارت أو موزار الذي تفتحت عبقريته وهو في الخامسة من العمر، فقد كان من الفقر بحيث لم يكن قادرا على شراء الخشب الذي يدفئ بناره الحجرة التي كان يعيش فيها، فكان يعمد إلى دس يديه في جورب من الصوف كي يستدفئ ويقوى على وضع موسيقاه .وقد مات موزار

بمرض السل وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، بعد أن تضاءلت حيويته بفعل البرد المستمر، والجوع، ونقص التغذية، وبلغت تكاليف جنازته الباعثة على الرثاء نحو ١٢ شلنا ونصف.

هذا عن الأدباء والفنانين، أما العلماء فقد بدأ الكاتب الحديث عنهم من خلال نموذج البرت أينشتاين، الذي عانى كثيرا في صباه من قسوة مدرسيه الذين اتهموه بالغباء، لكنه لم يأبه بهم وواصل تفوقه على طريقته ليحصل على جائزة نوبل في العلوم، وليبقى حتى اليوم واحدا من أهم العلماء في العالم، أما الإيطالي ماركوني وهو مخترع الراديو فلم يحصل على تعليم منتظم مثل أديسون، ومن رجال المال والأعمال يعرض الكتاب لسيرة "جون دافيدسون روكفللر"، رجل المال والأعمال الأمريكي الشهير، الذي جمع ثروات لم يسبقه إليها أحد من عمله في التعدين واستخراج البترول ليصبح أول ملياردير في التاريخ، لكنه أيضا تبرع بمبالغ من المال تفوق ما تبرع به أي إنسان في التاريخ!

ويعرض الكتاب أيضا لسير عدد من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، منهم ويدرو ويلسون وهو أكثر رؤساء الجمهورية الذين جلسوا في البيت الأبيض ثقافة واطلاعا، مع أنه ظل إلى سن الحادية عشرة يجهل القراءة والكتابة.

وقد عاش ويلسون أكثر حياته فقيرا، فإن مرتبه كمدرس كان ضئيلا إلى درجة اضطرت معها زوجته إلى أن تعمل في تلوين الصور الشمسية

وبيعها كي تساهم في مواجهة نفقات الأسرة. وفي بداية عهده بالتدريس لم يكن ويسلون يملك أن يشتري لنفسه ثيابا لائقة.. وكان شبيها بسلفه "لنكولن" في عدم اهتمامه بمظهره الخارجي.

ومن الساسة الذين يراهم الكتاب مؤهلين للخلود الأمريكي إيزنهاور، والزعيم الهندي المهاتما غاندي، والروسيان لينين وستالين، رغم التناقض بينهما، فكل منهما ناجح على طريقته ووفقا لأفكاره واتجاهاته، ويلاحظ على الكتاب أن الخالدات فيه كن خمسة فقط، أولهن كليوباترا ثم الامبراطورة جوزفين زوجة نابليون، والامبراطورة كاترين زوجة قيصر روسيا، وكذلك زوجة الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن، والوحيدة بينهن التي لم تكن ملكة أو زوجة لحاكم كانت هيلين كيلر التي أصيبت في طفولتها بالعمى والصمم، لكنها تغلبت على إعاقتها وألفت ثمانية عشر كتابا. فهكذا تعددت أسباب الخلود وأنماط الخالدين لكن مفتاح الخلود لكل منهم يتمثل في جملة واحدة هي تخطي الصعاب وتحقيق النجاح.

حازم عوض

سيرة كارينجي نفسه

سُئلت مسز كارنيجي يوما عن أهم ما يضايقها من زوجها، فأجابت بأنه أحيانا لا يقوى على المثابرة على اتباع تعاليمه ومبادئه.. وأردفت ضاحكة:

– إنني كلما رأيته ينساق للغضب أو يحيد عن الحكمة والروية، أطالبه بأن يرد لي الدولارات الستة والسبعين التي أنفقتها على الدراسة في معهده، لأنه – وهو صاحب التعاليم التي دفعت من أجلها هذا المبلغ – لا يثابر على اتباعها، وفي تهاونه فيها اثبات لعدم جدواها!

ويسمع كارنيجي هذا القول فيهز كتفيه ويقول ضاحكا بدوره:

– إنني بشر، لا أتمالك نفسي أحيانا من أن أغضب أو أسخط.. ولعل لي عذرا في أن نبي الصين "كونفوشيوس" كان يشكو – رغم حكمته وفلسفته– من أنه لا يستطيع التمسك دواما بما كان يبشر به من تعاليم ومبادئ.

أما هذه الرسالة التي يتوانى"كارنيجي" أحيانا عن مواصلة اتباع تعاليمها، فهي رسالة "النجاح في الحياة".. وأما المبادئ والتعاليم التي يبشر بها فهي المبادئ والتعاليم التي تمكن الإنسان من أن يكون على خير الصلات مع بقية الناس، وأن يستطيع بحديثه أن يكسب ودهم وتقديرهم ومعاملاتهم وأن يشق طريقه في الحياة قدمًا.. نحو المجد!

وليست هذه الرسالة وليدة البحث والتنقيب في الكتب، بقدر ما هي وليدة التجارب العملية في الحياة، فقد نشأ "كارنيجي" وعوامل الفشل تحوطه من كل جانب، فقد ولد في بيت متواضع لقرويين جاهلين، فقيرين، يتكسبان اللقمة – دون الغموس في أغلب الأوقات – من الزراعة في قرية نائية عن العمران وأسباب الحضارة، في بطاح ولاية "ميسوري" الأمريكية..

وكان من نتائج الفقر المحتومة، الشعور بالنقص.. وقد تعاون مع هذا الشعور حياء طاغ راح يستبد بالصغير حتى جعله يكره المدرسة، لأنه كان يرى نفسه دون أي زميل فيها.. ومن ثم أخذ ينطوي على نفسه، ويعتزل زملاءه.. لا، بل هم الذين انتبذوه لفقره، وزراية ملبسه، وهزاله، وضموره، وشحوب وجهه..

ولكن النظام المدرسي كان يتطلب منه أن يشترك في ميدان من ميادين النشاط المألوفة.. ودفعه أستاذه دفعا إلى الانضمام إلى فريق "المناظرة والخطابة"، فقد كان هذا هو الميدان الوحيد الذي لا يتطلب قوة عضلية يفتقدها، أو نفقات يحول الفقر دون توفرها لديه..

ووجد "كارنيجي" نفسه في المعمعة، وليس له من مخرج.. فعول على أن يتغلب على هذا الحياء الذي يسد أمامه أبواب الاستمتاع بالحياة، وعلى أن يرضى كبرياءه فيظفر غلابا بما افتقد من اعجاب أقرانه. ومن ثم عكف على إجادة أساليب الجدال، وتوفر على اتقان

فنون الإلقاء، حتى استطاع الفوز بزعامة المدرسة في الخطابة والمناقشة.. وكأنما كان هذا الفوز عصا سحرية ألانت له عنت زملائه، من طلبة وطالبات، فإذا مسلكهم نحوه يتغير، وإذا بهم يسعون إلى صداقته، بعد أن كانوا ينفرون منه!

وكان شفاء كارنيجي من الحياء، باعثا لهمته، مثيرا لثقته في نفسه، فإذا به يتوفر على تنمية هذه الثقة ومضاعفتها!

درس كارنيجي في كلية "وارينسبرج" واضطرته ظروف حياته إلى التحول عن التحصيل، وإلى البحث عن عمل يتكسب منه؛ فرحل إلى ولاية "نبراسكا" حيث اشتغل وسيطا لإحدى مدارس المراسلات، يستغل لباقته في المناقشة، وقدرته على التماس الحجج، في إقناع الناس بالإقبال على برامج تلك المدرسة.. ولكن معظم الأهالي كانوا من المزارعين الذين تضطرهم ظروف العيش إلى الانصراف إلى الكوخ، والزهد في الدراسة، فلم يصب "كارنيجي" توفيقا يذكر..

وكان قد بلغ العشرين من عمره – في سنة ١٩٠٨ – عندما تمكن من الالتحاق بإحدى شركات تعبئة اللحوم المحفوظة، كوسيط لبيع منتجاتها، فأقبل يبذل من النشاط والجهد ما رشحه لأن يصبح مديرا لأحد فروع الشركة ولما يكن قد انقضى على التحاقه سوى عامين!

ورد له هذا الانتصار ما كان قد أضاعه الإخفاق السابق من ثقة في النفس، وبعث فيه اعتدادا قويا، وحماسًا متوقدا، ورغبة طاغية في أن

يواصل حملاته ليبلغ أقصى مراقي النجاح، حتى أنه لم يتردد في أن يستقبل من المنصب – الذي كان في حد ذاته من معالم الفوز في حياته– وأن ينزح إلى "نيويورك" بحثًا عن فرصة أكبر شأنًا وأوسع مجالا..

وفي نيويورك، عاودته الرغبة في الاستزادة من فنون الحديث والإلقاء والخطابة، فالتحق بالأكاديمية الأمريكية لفنون التمثيل، وعمل في الوقت ذاته في بيع الحقائب الجلدية ليكسب قوته ونفقات الدراسة، غير أنه لم يلبث أن مل "الأكاديمية" بعد تسعة شهور، فتركها، وعمل كوسيط لبيع سيارات النقل..

ولكنه كان قلقًا لا يستقر على حال.. كانت جذوة الطموح الكامنة في نفسه لا تدعه يهدأ.. وكانت الآمال المبهمة تضطره إلى التقلب بين الأعمال والتنقل بين ألوان النشاط، بغية تعرف أيها أكثر ملاءمة لمواهبه وميزاته الكامنة "الخام" التي لم تجد بعد من الظروف ما يصقلها ويبرزها.. ومرة أخرى، عاودته نزعة الجدال والخطابة، فحاول أن يستغل هذه الموهبة بالعمل في مدارس جمعية الشبان المسيحيين بنيويورك كمدرس لفن الخطابة العامة..

وبين التدريس والتلاميذ، بدأ كارنيجي – في سنة ١٩١٢ – يكون لنفسه شخصية ورسالة وهدفا: إذ أوحت إليه تجاربه بأن الرجل الذي يقوى على مواجهة الجماهير والخطابة فيهم والمجاهرة بآرائه غير هياب

ولا متحرج.. هذا الرجل جدير بأن يشق طريقه في الحياة وأن يحقق آماله ويمسك بناصية النجاح، وأن يقهر كل ما يعترضه نحو هذه الغاية من عوامل الخوف، والقلق، والحياء، والشعور بالنقص، وافتقاد الثقة في النفس..

وفيما كان يلقن هذه التعاليم لطلبته، راح يروض نفسه عليها، ويطبقها عمليا، ونجح "كارنيجي".. ونجحت البرامج التي كان يلقنها لتلاميذه.. ثم نجح كثير من هؤلاء التلاميذ في الحياة، وكان هذا هو البرهان الذي ارتقبه، فأيقن أن الظروف قد غدت مهيأة لرسالته، وبادر إلى إنشاء "معهد كارنيجي" لتلقين كل راغب وسائل التأثير في الناس بالقول والخطابة، ووسائل معاملة الناس واكتساب ودهم وصداقتهم..

كأنما انبهر "النجاح" نفسه بما أحرزه "كارنيجي" فأسلس له قياده، وسار في ركابه، وأصبح معهد "كارنيجي" من المعاهد الكبرى التي تعد الشخص للنجاح في الحياة، حتى لقد أصبحت المصالح الحكومية والشركات في أمريكا، توفد إليه البعوث من رجالها ليتعلموا أسباب النجاح، وحتى لقد أصبحت فروع المعهد تربو على ٣٠٠ انتشرت في ١٦٨ مدينة في الولايات المتحدة، وكندا، والنرويج، وجزر هاواي، وعلى الرغم من كل هذا التوفيق، فإن كارنيجي لم يتخل عن تواضعه وبساطته.. سئل مرة عن قرابته للمليونير الأمريكي "كارنيجي"، فأجاب: "ليس بيننا من رابطة سوى الاسم، والظاهر أنه اسم سعيد، فقد جمع "كارنيجي"

الآخر الملايين من نجاحه، ويسعدني أن أدفع إلى الحياة الملايين من المرفقين.. إذا نجحت!"

وشاء له تواضعه أن يتجاهل أنه هو الآخر صار الآن مليونيرا! وسئل مرة من أين استمد تعاليمه ومبادئه، فأجاب في تواضع بأنه لم يأت بجديد، ولم يفعل أكثر من أن عمد إلى تذكر الناس بالمبادئ والحكم القديمة.. واستطرد قائلا: "مثال ذلك أنني أعلم الناس كيف يتخلصون من القلق، فهل تدري ما الذي يخلصهم منه؟.. اتباع حكمتين درج الناس على ترديدهما دون أن يفطنوا لما وراءهما من معان: "لا تعبر جسرا قبل أن تصل إليه" و"لا تبك على اللبن المراق"، فما الجديد في هذا؟"

وعلى إثر نجاح كارنيجي في معاهده، شرع في نشر رسالته – على نطاق واسع – بين الملايين من سكان المعمورة، تعميما للفائدة؛ فوضع تجاربه العملية في سلسلة من الكتب التي لاقت رواجا عالميا فريدا في بابه في العصر الحديث، وأشهرها: "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس"، "اقهر القلق وابدأ الحياة"، "الخطابة والتأثير في الناس في محيط العمل"، "لنكولن المجهول"، ثم هذا الكتاب من سير العظماء الذي أقدمه لك اليوم، والذي اتبع كارنيجي في تأليفه طريقة فريدة، فكان يكلف كل واحد من سكرتيريه الذين يعدون بالعشرات، بأن يطالع كل ما كتب عن كليوباترة مثلا من كتب ومجلدات، بجميع اللغات، ثم يدون له في صفحات معدودة أهم وأطرف ما أجمعت عليه المصادر من حقائق

تاريخية عنها. ومن هذا التقرير يصوغ كارنيجي سيرة الشخصية التي يكتب عنها، بأسلوبه الشائق، وهكذا تستطيع أن توقن أن الصفحات القليلة التي يتضمنها هذا الكتاب عن كل شخصية من المترجم لهم، هي زبدة عشرات الكتب والمجلدات! وقد بلغ من رواج كتب كارنيجي وكتاباته أنه يكتب الآن تعليقا يوميا قصيرا في أكثر من سبعين صحيفة يومية بالولايات المتحدة .. فضلا عن عشرات المحاضرات التي يلقيها في القاعات المختلفة وفي برامج الإذاعة ..

بايرون .. أعظم شعراء زمانه

ولد جورج بايرون أعظم شعراء القرن التاسع عشر، في يوم شتوي شديد البرودة، في لندن في ٢٢ يناير سنة ١٧٨٨، توفى أباه عنه وهو مازال صغيراً، وولد بعاهة في رجله نتج عنها إصابته بالعرج. وكان طفلا عندما ورث لقب لورد عن عم أبيه، فاضت شاعريته مبكرا فنشر قصائده وهو صبي، أما ديوانه الأول "ساعات الكسل"، فنشره وهو في التاسعة عشرة، بعده توالت دواوينه ومسرحياته، ومنها "رحلة تشايلد هارولد" بأجزائه الثلاثة، و"عروس أبيدوس"، وفي عام ١٨٢٣ تطوع للقتال إلى جانب اليونان في حربها ضد تركيا، وكانت إقامته في بلدة ميسولونجي اليونانية، حيث كان يمارس عملا إداريا لصالح الوحدة العسكرية الكائنة بها، وفي يوم ١٩ أبريل عام ١٨٢٤، هبّت على البلدة عاصفة هوجاء اقتلعت الأشجار، وصاحبتها الأمطار الغزيرة، فملأت السيول الطرقات بالوحول، وكان بايرون وقتها مصابا بالحمى فزادت حالته سوءا ولفظ أنفاسه الأخيرة هناك، وفي فجر ذلك اليوم أطلقت المدفعية اليونانية المرابضة في البلدة تحية وداع له، حزناً وأعلن الحداد العام في اليونان لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الأول من شهر يوليو عام ١٨٢٤ وصلت إلى إنجلترا السفينة "فلوريدا" وهي تحمل جثمان الشاعر.

ترى كيف كان طراز العاشق المثال منذ مائة عام؟.. أي نوع من

الرجال كانت تخفق له قلوب جداتنا، ويهتز له أجدادنا "الجالسون بجوار المواقد برغبات الغيرة والتشكك. ومن كان "دون جوان" و"فالنتينو" و"كلارك جيبل" تلك الأيام الخوالي؟.. إن الإجابة على هذه الأسئلة غاية في السهولة؛ فمنذ مائة عام لم يكن على وجه الأرض – من وجهة نظر النساء – رجل آخر يستطيع أن يباري فارس الأحلام "جورج جوردون، لورد بيرون!"

كان بيرون أعظم شعراء زمانه، وقد غير تأثيره اتجاه الأدب في القرن التاسع عشر تغييرا كاملا. والشعر الرومانتيكي الذي تضمه دواويننا اليوم مدين بجانب من أعنف أبياته وأرقها لبيرون، وقد أحب بيرون عشرات النساء، ولكن أعجب غرامياته كانت قصة حبه لأخته غير الشقيقة! وقد هزت فضيحة حبهما أوروبا كلها ودمرت حياة الفتاة.

ولكن عشق النساء لبيرون كانت تزداد كلما ازدادت سيرته سوءا! لقد عبدنه في جنون، حتى أن نصف نساء أوروبا ألقين اللوم على زوجته، عندما فارقته آخر الأمر، لأنها لم تستطع أن تحتمل فظاظته أكثر مما احتملت! وهؤلاء النساء ذاتهن، أغرقن بيرون في طوفان من القصائد والرسائل الغرامية، وخصلات شعرهن.. بل لقد عمدت إحدى شهيرات النبيلات الإنجليزيات، وكانت أرستقراطية ثرية، ذكية، ونجمة متألقة، افتتنت بها لندن فجثت عند قدميها الدقيقتين.. عمدت إلى التنكر في زي غلام، ثم وقفت على قارعة الطريق ساعات طويلة تحت المطر المدرار، انتظارا لبيرون،

العاشق المثالي، عندما يشرق بطلعته وهو خارج من مقره المقدس!

وقد جنت امرأة أخرى ببيرون غاية الجنون، حتى لقد تبعته طوال الطريق من إنجلترا إلى إيطاليا، ثم ضيقت عليه الخناق، حتى استسلم لها آخر الأمر!

ترى كيف كان هذا المعشوق النموذجي الهائل؟ هذا "الفالنتينو" لقرن مضى من الزمان؟ لقد كانت له قدم شوهاء، وكان يعرج عرجا قبيحا، ولا يكف عن أن يقضم أظافره، ويلوك التبغ في فمه!.. بل كان مشاغبا يكثر من التهديد الأجوف بمسدساته المحشوة في رابعة النهار، وفي قلب "إنجلترا القرن التاسع عشر"، كأحد رجال العصابات في شيكاغو! وكان حاد المزاج، فلو حدق الناس فيه، لارتفع ضغط دمه عشرين درجة، لأنه كان يخيل إليه أنهم يحدقون في قدمه الشوهاء!.. والشاعر الذي نودي به كأكمل "روميو"، كان يلذ له أن يعذب النساء.. لم تكن قد انقضت على زفافه ساعتان حين صارح عروسه بأنه يكرهها، وأنه ما تزوجها إلا نكاية بها، وأنها ستعيش في حسرة وندم على اليوم الذي رأته فيه أول مرة!.. وقد حدث بالفعل، فلم تستمر الروابط الزوجية بينهما سوى عام واحد. وقد توخى بيرون ألا يضربها قط، ولكنه كان يحطم الأثاث ويأتي بعشيقاته إلى البيت! فانتهى الأمر بزوجته إلى أن دعت الأطباء ليقرروا ما إذا كان قد مسه الجنون؟!

وقد أشاع عنه القرويون المقيمون على مقربة من الدير الكبير الذي اتخذه مسكنا، مختلف الروايات: قالوا أن خدمه جميعا ليسوا سوى

فتيات في ربيع العمر، فتيات جميلات خفيفات الظل! كما رووا كيف كان يظهر هو وضيوفه في هيئة الرهبان، مرتدين الملابس الكهنوتية السوداء الفضفاضة، وهم غارقون في سكرهم وعربدتهم التي إذا قيست بها مآدب عشاء الملك المتهتك "بلتشصر" لبدت إلى جانبها أقرب إلى الاجتماعات الدينية!.. وفي تلك السهرات الماجنة كانت الخادمات اللطيفات تقدمن النبيذ، حيث يرتشفه بيرون وأصدقاؤه في أوان من جماجم بشرية، جماجم قد عولجت بالتنعيم والتلميع حتى صار لها من البريق ما للبدر في سماء الصحراء..

وكان الناس كثيرا ما يشبهون بيرون، بقده الرشيق وقامته الهيفاء بالإله أبوللو، وكانت بشرته ناصعة البياض، حتى لقد رددت المعجبات به أنه "يبدو كزهرية من المرمر مضاءة من داخلها!".. ولكنهن ما كن يدركن مدى العذاب الذي كان يعانيه بيرون لكي يبدو هكذا.. ما كن يعلمن أنه في كل يوم من أيام حياته، بل كل ساعة، كان يخوض معركة منهكة مؤلمة لا تفتر ضد البدانة، فهو لكي يظل رشيقا معشوقا، كان يخضع لنظام غذائي صارم لا يخطر ببال نجوم هوليوود أنفسهم!

فقد كان – مثلا – لا يتناول طوال يومه سوى وجبة واحدة، وهذه الوجبة الوحيدة كانت غالبا ما تقتصر على قليل من البطاطس أو الأرز، قد نثرت فوقه قطرات الخل. فإذا تاق إلى التغيير، بأنه يتناول قبضة من (البقسماط) يتبعها باحتساء قدح من مياه الصودا. ولم تكن المعجزة أنه

كان يبدو "كالمرمر المضاء من داخله"! وإنما المعجزة أنه لم يكن يبدو كهيكل عظمي لأحد الصينيين في إقليم دهمته المجاعة! فإنه لكي يدفع عن نفسه شبح البدانة البغيض، أقبل على لعب السيف والملاكمة وركوب الخيل والسباحة.. وعلى ذكر السباحة فإن هذا الرجل، الذي كان أعظم شعراء جيله، كان أكثر فخرا بعبوره مضيق الدردنيل سباحة، من فخره بأشعاره الخالدة! وعندما كان يلعب الكريكيت، كان يرتدي سبعة أثواب معا. ولكن الأثواب السبعة لم تكن تكفي لأن يتصبب منه العرق الذي يذهب بالدهن، ومن ثم فقد كان عليه أن يذهب ثلاث مرات كل أسبوع إلى حمام تركي، لكي يعالج جسده بالتطرية والتدليك!

وقد كان النظام الغذائي العجيب الذي اتبعه سببا في افساد هضمه تماما، ولذا كانت غرفة نومه تعبق برائحة العقاقير والأدوية، من حبوب وسوائل وتركيبات خاصة، بحيث كانت أقرب إلى أن تكون معملا لأحد الصيادلة منها إلى عش غرام لأعظم عاشق عرفته الدنيا! وكان يقض مضجع بيرون في نومه كابوس مفزع، حتى لجأ إلى منومات الأفيون، ولكن حتى منومات الافيون لم تنجح في ايقاف أحلامه المزعجة، ولذا فقد احتفظ إلى جوار فراشه بمسدسين محشوين. وفي هدأة الليل، كان يصحو من نومه صارخا صائحا، مصطك الأسنان، ثم يذرع الغرفة طولا وعرضا وهو يلوح بالمسدسات والخناجر!

والدير القديم الذي كانت كوابيس الليل تدهم فيه اللورد بيرون، كان

مسكونا بأحد الأشباح، لراهب كان يعيش فيه واختفى من عهد طويل.. وقد أقسم بيرون أن ذلك الطيف المتشح بالسواد كان يمر به خلال الدهليز بخطوات واسعة وهو يرمقه بعين ذات نظرة مدمرة! وقد شاهد ذلك الطيف الرهيب قبيل زواجه المشئوم مباشرة. وبعد سنوات، في إيطاليا، أقسم بيرون أنه رأى شبح الشاعر شيللي يسير في إحدى الغابات، بينما كان شيللي في تلك اللحظة على بعد أميال من المكان، وكان بيرون يعلم هذا!

ومما يدعو إلى العجب، أن شيللي قد مات فعلا بعد هذا بقليل – حيث أغرقته عاصفة هبت على إحدى البحيرات – وان بيرون هو الذي بنى بيديه المحرقة الجنائزية ثم أحرق الجثة!

وثمة خرافة أخرى كانت تطارد عقل بيرو، فإن عرافة من الغجر كانت قد أنذرته ذات يوم بأنه سيموت في السابعة والثلاثين، وقد مات بالفعل بعد عيد ميلاده السادس والثلاثين بثلاثة شهور! وكان بيرون يؤمن بأن لعنة مشئومه قد حلت على أسرته جميعها. وقد أقسم أن عيد الميلاد السادس والثلاثين نحس على كل من يتصلون به بصلة الدم! وحتى الذين ترجموا لحياة اللورد بيرون من معاصرينا قد مالوا إلى موافقته على هذا الرأي، فقد توفى والده في عامه السادس والثلاثين، كما ماتت ابنة بيرون قبيل حلول عيد ميلاد السادس والثلاثين، بعد أن عاشت حياة تكاد تكون صورة طبق الأصل من حياة أبيها!

آينشتاين .. حياته في سطور

ألبرت آينشتاين هو فيزيائي ألماني وُلد في ١٤ مارس عام ١٨٧٩م في مدينة أولم في ألمانيا، عانى كثيرا في صباه من قسوة مدرسيه بسبب "غبائه"، في سنة ١٨٩٤ انتقلت أسرته إلى إيطاليا، أما هو فواصل دراسته في سويسرا حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة (زيوريخ)، ثم عين مدرسا للعلوم الرياضية والطبيعية في مدرسة الالسن بزيوريخ، تجنس بالجنسية السويسرية وعاش في سويسرا من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١٣، وقد قام آينشتاين بتطوير العديد من النظريات الفيزيائية المهمة، وأحدث انقلابا في العلم بنظريته في "النسبية"، وحصل آينشتاين على جائزة نوبل للفيزياء في عام ١٩٢١م، وذلك لتفسيره الأثر الكهروضوئي، وإلى جانب جائزة نوبل بالعديد من الجوائز الأخرى، مثل: وسام كوبلي عام ١٩٢٥م، والميدالية الذهبية للجمعية الملكية الفلكية في عام ١٩٢٦م، وشخصية العام لعام ١٩٩٩م، وفي ١٩٣٣ حرمه هتلر من منصبه العلمي في برلين، فاختاره معهد برنستون الأمريكي للأبحاث أستاذا به.. وفي أول أكتوبر ١٩٤٠ تجنس بالجنسية الأمريكية، وتوفي في ١٧ ابريل عام ١٩٥٥م عن عمر يناهز ٧٦ عاماً، وذلك نتيجةً لنزيف داخلي.

منذ سنوات قليلة مضت، كنت أسير برفقة صديق في شوارع مدينة

صغيرة في ألمانيا الجنوبية، عندما استوقفني صديقي فجأة مشيرا إلى نافذة شقة صغيرة فوق محل بدال، وقال: "أترى هذه الشقة الصغيرة؟ إنها المكان الذي ولد فيه آينشتاين!"

وفي ذلك اليوم تقابلت مع عم آينشتاين وتحدثت معه، فلم ألمح عليه أية أمارة تدل على أنه رجل يختلف عن غيره من سائر الناس، وليس هذا غريبا لأن "آينشتاين" نفسه، عندما كان صغيرا، لم تكن تظهر عليه أية دلالة تنبئ عن ذكاء أو عبقرية أو تفوق، مع أنه يعتبر الآن زعيم جبابرة العقول في عصره ومن أعمق المفكرين في تاريخ العالم كله!

ومن بواعث الدهشة أن آينشتاين طفلا خجولا متأخرا في مداركه، يجد صعوبة كبيرة في أن يتعلم كيف يتكلم! وكانت تبدو عليه سيماء الغباوة والبلادة، حتى لقد أطلق عليه المعلمون في المدرسة: "الغبي!"، بل إن والديه كانا يعتقدان أن إدراكه أقل من المستوى الذي يجب أن يكون عليه من كان في مثل سنه..

لذلك كان من دواعي دهشة آينشتاين أن يستيقظ يوما منذ سنوات قليلة مضت، ليرى نفسه وقد أدرج اسمه بين أسماء أشهر علماء الأرض!.. ويكاد يكون من الصعب أن نصدق أن أستاذا في الرياضة يصبح اسمه من ألمع الأسماء التي تحتل مكان الصدارة من صحف القارات الخمس جميعا، والواقع أن آينشتاين نفسه يعترف بأنه لا يفهم سببا لكل هذه الشهرة، كما يعجز الكثيرون عن إدراك سر ذيوع صيته إلى

هذا الحد الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الجنس البشري!

ويبدو آينشتاين في تصرفاته الخاصة غريبا غرابة النظرية التي استحدثها وهي "نظرية النسبية"!.. فهو لا يضمر غير الاحتقار لكل ما اعتاد الناس التعلق به: كالشهرة، والثراء، والترف.. الخ – من ذلك أنه كان ذات مرة يعبر الأطلنطي على ظهر باخرة كبيرة، فقدم له القبطان أكبر جناح فيها ووضعه تحت تصرفه، ولكن آينشتاين رفض عرض القبطان، وفضل السفر في أحقر غرفة في قاع الباخرة على أن يقبل أية معاملة استثنائية خاصة!

ولما بلغ آينشتاين الخمسين من عمره أغرقته ألمانيا في عيد ميلاده الخمسيني بألقاب التشريف، وصنعت له تمثالا نصفيا أقامته في "بوتسدام"، كما أهدته منزلا ويختا بحريا كعربون لحب أمته له واعجابها الخالد به، ولكن لم تمض سنوات قليلة على ذلك حتى انتزعت منه أملاكه المذكورة وأصبح آينشتاين يخشى العودة إلى وطنه وعشيرته!.. بل لقد قضى بضعة أسابيع في بلجيكا خلف أبواب محكمة الرتاج والقضبان، وإلى جوار فراشه كان ينام أحد رجال البوليس كل ليلة لحراسته!

ومن أبرز صفات آينشتاين زهده في الدعاية لنفسه، إلى حد أنه حين وصل إلى نيويورك ليتقلد منصب أستاذ الرياضة في معهد الدراسات العليا في "برنستون" كان كل ما يرجوه أن يتجنب مقابلة مخبري الصحف أو التحدث إلى الصحفيين، ويبتعد ما استطاع عن الضوضاء والناس،

ولذلك فقد حمله أصدقاؤه سرا من الباخرة التي كان يستقلها – قبل أن ترسو في الميناء – إلى زورق نقله على عجل إلى السيارة التي انطلقت به قبل أن يضيق المستقبلون الخناق عليه!

ويقول آينشتاين أن هناك أثني عشر شخصا فقط من الأحياء استطاعوا فهم نظريته في النسبية، بالرغم من أنه قد صدر في شرح هذه النظرية ما يربو على تسعمائة كتاب!.. وهو يشرح نظريته العميقة بهذه العبارة السهلة المبسطة فيقول: "إنك إذا جلست إلى فتاة جميلة لمدة ساعة فإنه يخيل إليك أن الساعة قد مرت كدقيقة، ولكنك إذا جلست على موقد من الفحم المشتعل لمدة دقيقة فإنه يخيل إليك أن الدقيقة قد مرت كساعة!"

هذه هي "نظرية النسبية"، وإنني أراها بالنسبة لي نظرية معقولة للغاية، فإذا كنت تشك في صدق أقوالي فما عليك إلا أن تختبر ذلك بنفسك، وعندئذ فسأكون سعيدا بأن أجلس أنا مدة ساعة إلى الفتاة الجميلة، وأدعك نجلس على موقد من الفحم المشتعل مدة دقيقة!

وعلى ذكر النساء، فإن آينشتاين تزوج مرتين، وقد رزق من زوجته الأولى بولدين تبدو عليهما سيماء الذكاء الوقاد والنبوغ.. وتعترف زوجة آينشتاين بأنها وإن كانت لم تتوصل بعد إلى فهم نظرية زوجها عن "النسبية"، إلا أنها قد تمكنت من فهم شيء هو أهم بكثير من هذه النظرية بالنسبة للزوجة: لقد أمكنها أن نفهم زوجها نفسه!.. وقد اعتادت أن تدعو بعض الأصدقاء إلى تناول الشاي في منزلها بين الحين والآخر،

فإذا طلبت من زوجها في مثل هذه المناسبات أن يقابل المدعوين، صاح فيها بعنف: "لن أقابل أحدا! لن أقابل أحدا! إنني ذاهب من هنا.. إنني لا أستطيع العمل في هذا المكان! ولن أتحمل بأي حال من الأحوال أن يقطع على أحد تفكيري بعد الآن!"

ولكن "فراو آينشتاين"، زوجة العالم الكبير، تظل صامتة حتى تهدأ ثائرته، وتخف سورة غضبه.. وعندئذ، وبشيء من الكياسة و"الدبلوماسية" تنجح في أن تقنع العالم النافر بالنزول من حجرته ومقابلة ضيوفها، وتناول قدح من الشاي معهم، وبذلك تعاونه على أن يتخفف بعض الوقت من عمله المرهق المتواصل!

وتقول زوجة آينشتاين أن زوجها مغرم بالنظام في عمله وطريقه تفكيره، ولكنه مع الأسف ليس مغرما بالنظام في طريقة حياته؛ فهو يعمل ما يشاء، في أي وقت يشاء!.. وعنده قاعدتان ينصح الناس باتباعهما في حياتهم الخاصة: الأولى هي أن لا يسير المرء على أية قاعدة كانت!.. وأما القاعدة الثانية فهي أن يستقل الإنسان دائما بآرائه عن آراء الآخرين، فلا يتقيد بها..

وآينشتاين يتوخى البساطة المطلقة في حياته: فهو يخرج مرتديا ملابس قديمة كلها تجاعيد، نظرا لعدم كيها! وقلما يضع قبعة على رأسه.. ويحلو له الغناء والصفير وهو في الحمام.. كما يحلق ذقنه وهو غائص في الماء في حوض الاستحمام.. ولا يحب استعمال صابون

خاص للحلاقة، وإنما يستعمل فيها الصابون العادي الذي يستعمله في حمامه، فإن هذا الرجل الذي يحاول فك طلاسم الوجود وحل عقد الكون المحيرة لا يتردد في القول بأن استعمال الرجل لنوعين من الصابون، واحد للحلاقة وآخر للحمام.. يزيد الحياة تعقيدا!

وعندما رأيت آينشتاين كان التأثير الذي تركه في نفسي هو أنه رجل في غاية السعادة.. والواقع أن نظريته الفلسفية عن السعادة لتفوق عندي بمراحل نظريته عن "النسبية" لأنني أعتقد أنها فلسفة رائعة؛ فهو يقول أنه سعيد لأنه لا يريد شيئا من أحد، ولا يحتاج إلى أحد، فهو لا يريد المال، ولا الألقاب، ولا الثناء والإطراء، وهو يصنع سعادته، ويكون عناصرهما من أشياء غاية في البساطة: عمله، والعزف على الكمان، والتنزه في قاربه الصغير!

ويجد آينشتاين في العزف على الكمان سعادة لا تعدلها سعادة أخرى في الحياة؛ فهو يقول أنه دائم التفكير في الموسيقى، وأنه يحلم بها في يقظته..

ومن الطرائف التي تروى عنه أنه كان ذات مرة راكبا الترام في برلين، فأعطى (الكمساري) قطعة من النقود، فسلمه هذا التذكرة ورد إليه باقي نقوده، فلما أحصى آينشتاين النقود راجع (الكمساري) واتهمه بأنه لم يرد إليه الباقي مضبوطا!.. فأعاد الرجل عد النقود وتبين أنه لم يخطئ! فلسمها إلى آينشتاين ثانية قائلا: "إن الأمر المتعب فيك هو جهلك المطبق بالأرقام!"

لينين .. ديكتاتور روسيا الزاهد

وُلِدَ فلاديمير في ٢٢ أبريل عام ١٨٧٠، وفي عام ١٩٠١ اتخذ لقب لينين أثناء نشاطه الحزبي السري. كان لينين من أسرةٍ تتمتع بمستوى تعليمي وثقافي عالٍ وكان له ست إخوة لكلٍ منهم دوره النسبي في العمل الثوري.

في عام ١٨٨٧ أُعدِم أخوه الأكبر أليكسندر لانضمامه إلى جماعةٍ كانت تخطط لاغتيال الإمبراطور أليكسندر الثالث. التحق لينين في العام نفسه بجامعة كازان لدراسة القانون، إلا أنه فُصل خلال الفصل الدراسي الأول بسبب مشاركته في إحدى المظاهرات الطلابية، وأُلقِي القبض عليه عام ١٨٩٥، حيث نُفِي إلى سيبيريا لمدة ثلاثة أعوام، وبعد خروجه من منفاه بدأ دوره القيادي في الحركة الثورية.

نُفِي لينين مجددًا خلال الحرب العالمية الأولى، وفي عام ١٩١٧ نشبت الثورة التي أطاحت بقياصرة روسيا فعاد لينين إلى بلاده، وسرعان ما أعلن عن معارضته الحكومة الجديدة المؤقتة التي تشكلت على يد مجموعةٍ من قادة الأحزاب البرجوازية الليبرالية، وكبديلٍ لهذه الحكومة، دعا لينين إلى تشكيل حكومة سوفيتية يتولى إدارتها المباشرة الجنود والفلاحين والعمال من الشعب.

في أواخر عام ١٩١٧ قاد لينين ثورة أكتوبر، التي أدت إلى حرب أهلية دامت ثلاث سنوات، .

أُصيب لينين بسكتةٍ دماغية في ديسمبر من عام ١٩٢٢، ولازم الفراش حتى توفي في الحادي والعشرين من يناير ١٩٢٤.وتم تحنيط جسده ووضعه في ضريح بالميدان الأحمر في موسكو.

أريد أن أقص عليك بعض الوقائع غير المعروفة عن رجل مات منذ عقود مضت، ومع ذلك فإن مدينة عدد سكانها ٧٠٠ ألف نسمة سميت باسمه تشريفا له، ومائة مليون من الناس يعتبرونه راعيهم القديس! كان اسم هذا الرجل "لينين"، وقد بدأ في روسيا أعظم تجربة اقتصادية عرفها العالم.. تجربة لا بد وأن يكون لها تأثير عليك وعلى كل فرد آخر في العالم تقريبا!

كان لينين قصير القامة، أصلع الرأس، متغضن الوجه، وكانت قدماه من القصر بحيث لا تكادان تلمسان الأرض إذا جلس على مقعد!.. ولم يكن يهتم بمنظره على الإطلاق، وكانت سراويله عادة طويلة للغاية، وأنفه مقوسا قليلا إلى أعلى، وبإحدى عينيه حول. ويغلب على الظن أنه لم يلبس في حياته قبعة من الحرير أو سترة رسمية "ردنجوت"، وكان سعيدا في زواجه، وقد أحبته زوجته إلى حد أنها رفضت أن تتركه عندما نفي، وعليه فقد رافقته إلى منفاه لكي تسهر عليه وتعتني به.. وعندما أبعد إلى سيبيريا كان عنده متسع كبير من الوقت مكنه من أن يحذق لعبة الشطرنج ويصبح خبيرا بها، بحيث كان في مقدوره أن يؤدي فيها عدة

مباريات في آن واحد، بل أنه أولع باللعبة إلى حد أنه صار يلعبها بالمراسلة مع أصدقائه الذين تفصله عنهم مسافات بعيدة!

وقد كان لينين في حداثته طفلا جادا مكتئبا، يندر أن يلعب مع أطفال آخرين، بل أنه لم يشترك في مباريات رياضية قط. وعندما نما وأصبح رجلا لم يكن ليعير أي اهتمام للموسيقى أو الشعر أو الدين، ولكنه درس القانون وأتقن أربع لغات هي: الفرنسية والألمانية والروسية والإنجليزية!

وقد شنقت الحكومة الروسية أخاه لأنه كان يدبر مؤامرة لقتل القيصر ألكسندر الثالث، وبعدئذ نفت الحكومة لينين نفسه لآرائه المتطرفة، واختاروا لمنفاه مدينة صغيرة في سيبيريا المتجمدة، وهناك رأى لينين بعينيه الفقر الشنيع الذي يرزح تحته الفلاحون الروس، فقد كانوا من الفقر بحيث لم يكن في مقدورهم أن يأكلوا اللحوم إلا في أيام الاعياد الدينية.. أو بتعبير آخر كانوا يأكلوا اللحم نحو عشرين مرة في العام فقط!

وأثناء المجاعة الكبرى التي حدثت في عام ١٨٩١، وعندما مات الملايين من الفلاحين الروس المعوزين، من الجوع والتيفوس والكوليرا، أيقن لينين أن شيئا أساسيا يجب أن يعمل، ومنذ ذلك الوقت أصبح ثوريا ملتهب النفس سخطا وحماسة!

وأثناء الخمسة والعشرين عاما التي أعقبت ذلك التاريخ، هام لينين على وجهه من بلد إلى آخر.. وعاش في أوقات مختلفة بين ألمانيا والنمسا وفرنسا وبولندا وسويسرا وإنجلترا. وأثناء إقامته في إنجلترا كان كثيرا ما يذهب

ويجلس ساعات متوالية خاشعا بجوار قبر "كارل ماركس" أب الاشتراكية!

ولكي يتجنب الاعتقال كان يتجول متنكرا، أحيانا في زي فلاح، أو بحار، أو ساعي بريد، وأحيانا أخرى في زي امرأة! وكان يحمل في أسفاره دائما حقيبة ذات قاع مسحور يحفظ فيها أوراقا سرية ووثائق اتهام. وفي بعض الأحيان كان يدفن مستنداته السرية في حديقة الخضروات بمنزله ويزرع فوقها البصل والكرنب!.. وقد ألف أحد كتبه الثورية وهو في السجن، ولكي يتحاشى أن يضبط استعمل في كتابته اللبن بدلا من الحبر– فلم تكن الكتابة تقرأ إلا بعد نقع الورق في الماء الساخن!

كما علم تلاميذه استعمال الحبر عبر المنظور عند الكتابة إليه، وحين كان يصله أحد هذه الخطابات غير المتطورة، كان يطلب إلى حارس السجن أن يأتيه بالشاي، وعندئذ، ما يكاد الحارس يدير ظهره حتى يغمس لينين الخطاب في الماء الساخن ويقرأه!

وفي نوفمبر سنة ١٩١٧ أصبح لينين ديكتاتور روسيا، وصادر جميع الملكيات الخاصة، ففر أصحاب الملكيات الكبيرة مذعورين عندما استولى الفلاحون على أملاكهم. وسرق هؤلاء قطعا نادرة جميلة من الأبسطة وصنعوا منها أحذية!.. كما أخذوا الأواني التي لا تقدر بثمن والمصنوعة بأيدي أساتذة من الزخرفة الخزفية في أوربا واستعملوها أوعية لحفظ الخل!

وكانت روسيا في ذلك العهد جائعة تقريبا، فكان لينين يرفض أن يضع سكرا في الشاي الذي يشربه لأن الآخرين لم يكونوا يستطيعون

الحصول على السكر. ومع أنه كان الحاكم المطلق لروسيا إلا أنه لم يسمح لنفسه بأبسط أنواع الكماليات. وقد حكم روسيا دون موظفين من السكرتيرين. ويندر أن كان يملي خطابا، وإنما كان يكتب أكثر خطاباته بنفسه، وكان يعمل من ثماني عشرة إلى عشرين ساعة في اليوم!

وبعد مضي خمس سنوات أخذ يشكو من مرض تصلب الشرايين، ثم أصيب بالشلل، وفقد القدرة على الكلام، فكان عليه أن يتعلم كيف يتكلم من جديد كالطفل! وقد شلت يده اليمنى فتعلم كيف يكتب بيده اليسرى. وظل يكافح الموت كفاح اليائس مدة عامين، مكررا القول: "إن هناك أعمالا كثيرة جدا عليَّ أن أنجزها"

إن صورته معلقة اليوم في كل بيت وكل مصنع وكل ناد للعمال في جميع أنحاء روسيا، ويضع الخبازون على الكعك رسما يشبهه، ويزرع البستانيون زهورهم بطريقة تجعلها إذا تفتحت فإنما تتفتح على شكل يشبه صورته!.. كما ينسج صانعو الأبسطة صورته عليها، وفي روسيا ملايين من الناس يعبدونه كما لو كان إلهًا! ويتناقل الفلاحون الروايات عن معجزات عودته من قبره ليساعد العمال الذين تصادفهم المتاعب في بعض الظروف!

ويرقد جسد لينين الآن محنطا في وعاء من الزجاج، ومن المرجح أن مئات من الحجاج يمرون في اللحظة التي تقرأ فيها هذه السطور أمام جثمانه حاسري الرؤوس، فإن ما يقرب من الألف نسمة يشرفونه بهذه

الزيارة كل يوم.. وفي هذه اللحظة بالذات يقف الجنود الحمر بحرابهم يحرسون جثمان الرجل الذي كان رائد عهد جديد في تاريخ العالم.

ماركوني .. مخترع الراديو غير وجه التاريخ

ماركوني هو مخترع الراديو ولد في ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٤م، في إيطاليا، ولم يحصل على تعليم منتظم مثل أديسون، ولكنه كان يميل منذ صغره إلى دراسة الفيزياء، فقام بدراسة الأبحاث عن الموجات الكهرومغناطيسية، واستغرق وقتاً طويلاً في دراستها. وتوصل إلى فكرة رائعة غيرت وجه التاريخ.. مؤداها أنه يمكن استخدام الموجات الكهرومغناطيسية في إنتاج الإشارات الصوتية لمسافات بعيدة، ظل ماركوني يطور أبحاثه ودراساته حتى توصل أخيراً إلى اختراع الراديو، وظل يطور ويحسن في اختراعه.

وفي سنة ١٩٠١م تمكن من إرسال الموجات عبر المحيط الأطلنطي، كما قام بتطوير الموجات القصيرة واكتشاف طريقة استخدام توصيلة الأرضي لزيادة مدى الأرسال في الراديو. وقد أنشأ ماركوني شركة ماركوني لتصنيع الراديو. وفي سنة ١٩٠٩م حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عن اختراعه الراديو، وقد كان هذا الاختراع هو الأساس الذي قامت عليه صناعة الراديو الإذاعي والتليفزيوني فيما بعد، فكل هذه الأجهزة تستخدم الموجات في نقل الصوت والصورة عبر الأثير إلى المحطات الأرضية والتي بدورها تقوم بنقلها إلى محطات الإذاعة

والتليفزيون ليسمعها ويشاهدها الجمهور. وعينه بعدها ملك إيطاليا عضوا في مجلس الشيوخ، وفي سنة ١٩٢٩ منحه لقب "مركيز"، وفي ١٩٣١ عين عضوا في أكاديمية الفاتيكان على أثر إنشائه محطة راديو الفاتيكان، وتوفي في روما في ٢٠ يوليو سنة ١٩٣٧

لقد كان من حسن حظي، منذ سنوات قليلة مضت، أن أقضي ساعة من الزمن مع رجل كان له تأثير عميق في حياتك؛ فقد غير العالم الذي تعيش فيه، وجعل في مقدورك أن تبعث برسالة حول العالم في سبع ثانية! كما جعل في مقدورك أن تجلس في منزلك وتدير زرا في جهاز اللاسلكي الذي تقتنيه فتسمع الملك يتحدث من قصر بكنجهام، أو تستمع إلى إحدى الفرق الموسيقية الشهيرة وهي تعزف مثلا أنغام "الدانوب الأزرق" الساحرة!

والاعتقاد السائد أن ماركوني إيطالي الجنسية، ولكن الحقيقة أن أباه فقط كان إيطاليا، أما أمه فكانت أيرلندية، وكان منزلها في لندن. وقد أكسب الدم الأيرلندي ماركوني ذلك الشعر الخفيف والعينين الزرقاوين، فكان يبدو أقرب كثيرا إلى الإنجليزي منه إلى الإيطالي. وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة ولكن بلهجة "لندنية" خفيفة. كما كان يضع – على عادة بعض الإنجليز – منظارا مفردا "مونوكل" على عينه اليسرى، لأنه فقد – مع الأسف – عينه اليمنى إثر حادث سيارة وقع له في عام ١٩٢٧.

وبينما كنت جالسا أتحدث إلى هذا الرجل، الهادئ الصوت، الوديع، المتواضع، كان من الصعب على أن أصدق أنني كنت في حضرة رجل من أعظم الرجال الممتازين في العالم!.. وكنت قد قرأت منذ سنوات، وأنا بعد حدث صغير أعيش في ولاية "ميسوري"، عن عالم كبير، في إيطاليا أيضا، كان قد اكتشف التلغراف اللاسلكي، وفي أحد أيام سنة ١٩٢٠ ذهبت مع "ليويل توماس" لتناول طعام الغداء في مطعم من مطاعم لندن، حيث أمكننا سمع آلة التقاط جديدة قيل إنها تسمى "جهازا لاسلكيا"، والآن هذا هو يجلس أمامي ذلك الرجل العظيم الذي جعل هذه المعجزات ممكنة.. لقد خيل إلي أنه حلم!

وقد سألته: كيف بدأ اهتمامه بإجراء تجارب الراديو؟ فأجاب بأن السبب الأكبر لاهتمامه أنه وهو شاب صغير كان يحلم بعمل شيء يمكنه من السفر حول الأرض.. وعندما كان يسافر مع أمه من إيطاليا لزيارة أهلها في لندن، كان يتطلع من نافذة القطار وهو ينهب أرض فرنسا، فتتألق أمام عينيه الجبال المكسوة بالجليد، والانهار المتدفقة، والقصور الزاخرة بأقاصيص الحب والمناجاة.. ومنذ تلك المرحلة من صباه ولد فيه حافز قوي وميل حقيقي للأسفار.. وقد شعر حين كبر بأنه، بإجرائه التجارب عن الموجات الكهربائية، وتكريس حياته لبحوث التلغراف اللاسلكي، تسنح له فرصة للسفر – تحت ظل السماء – إلى البلاد النائية!.. وقال أنه لم يكن من عادته أن يستطيع تركيز فكرة في

العمل وهو جالس بين جدران غرفة مكتب ضيقة.. والواقع أن ماركوني أنجز أغلب أبحاثه على ظهر يخته الذي كان أشبه بمعمل عائم. وقد بلغ من حبه للأسفار أنه عبر الأطلنطي سبعا وثمانين مرة!

وعندما كان ماركوني لم يزل حديث السن جدا، أمكنه أن يبعث برسالة لاسلكية عبر الحجرة في بيته.. ثم تمكن من إرسال رسائل إلى مسافة ميلين، فضاعف ذلك من حماسته.. أما أبوه فقد صارحه بأنه إنما يضيع وقته هباءً!.. ولكن بعد ذلك بسنين قليلة باع الشاب ماركوني امتياز بعض مخترعاته إلى الحكومة البريطانية بمبلغ ٥٠،٠٠٠ (خمسين ألف) ليرة، فكان تأثير ذلك على أبيه بالغا. وقد سألت السنيور ماركوني ماذا فعل بذلك المبلغ الأول الذي كسبه باجتهاده؟.. فقال لي أنه ذهب واشترى بالمبلغ دراجة وبعدئذ عاد إلى عمله كالمعتاد.. لأن الحماسة التي كان يستشعرها وهو يقوم بتجاربه كانت أشد إغراءً له من أي شيء يمكن شراؤه بالمال!

وفي سنة ١٩٠١ اعتقد ماركوني أن حلم حياته العظيم قد أصبح وشيك التحقيق، فهرول يعبر المحيط الأطلنطي وكله أمل في أن يتمكن من استلام رسائل لاسلكية وهو في أمريكا، من محطة الإرسال التي أعدها في إنجلترا!

وهناك عند شاطئ "نيوفوندلاند" أرسل في الجو طائرة صغيرة من نوع الطائرات الورقية، مصنوعة من الخيزران والحرير، لتقوم بوظيفة الصاري

(الإيريال)، ولكن الريح مزقتها إربًا!.. وعندئذ أرسل في الجو منطادا (بالون)، ولكن الريح حطمت المنطاد وألقت به في المحيط. وأخيرا تحصل على طائرة يمكنها أن تستقر في الجو، فلما ارتفعت في الهواء بدأ يصيخ سمعه.. أصغى طيلة ساعات، محتبس الأنفاس، ينتظر الإشارات التي كان مفروضا وصولها من محطته الكائنة في "كورنوول"، ولكن شيئا لم يصل. لم يكن هناك أدنى صوت! فأصيب بخيبة أمل عنيفة.. اعتقد أن تجاربه قد فشلت، وأن حلم حياته العظيم قد عصفت به الرياح!.. ولكن، فجأة، سمع "طقطقة" خافتة، وأخرى بعدها، وأخرى بعدها. نعم! هذه هي! الإشارة المتفق عليها بعينها، وكانت عبارة عن ثلاث علامات ترمز إلى حرف "س" كالتي يستعملها عمال التلغراف في حروفهم الأبجدية اللاسلكية

اتقد ماركوني حماسة، وعرف أن العمل الذي أتمه كان عظيما في التاريخ! وتحرق شوقا للاندفاع خارجا وإذاعة النبأ على أسطح المنازل، ولكن هل يفعل ذلك؟ لا. فقد خشي ألا يصدق الناس. ومن ثم احتفظ بسره لنفسه مدة ثماني وأربعين ساعة وعندئذ استجمع شجاعته وأرسل إلى لندن برقية بالحوادث التي جرت، فكان لها دوي عظيم!

ونشرت صحف القارات الخمس القصة، فاستثارت غليان الأوساط العلمية العالمية. إن الانسان ينتصر مرة أخرى على الزمن والأبعاد، ويخطو على عتبة عهد جديد؛ فقد ولد التلغراف اللاسلكي الذي قدر له أن يغير العالم بالنسبة لك ولي!

وكم كان عمر ماركوني عندما صنع كل هذا؟ سبعة وعشرين عاما فقط! وفي الحال بدأ يتسلم خطابات مرسلة إليه من أفاقين حاقدين، يشكون فيها مر الشكوى لأنهم تخيلوا أن الموجات الكهربائية ستمر خلال أجسامهم، وستحطم أعصابهم، وتجعل من المستحيل عليهم أن يذوقوا طعم النوم!.. وبلغ الأمر ببعض هؤلاء الأفاقين أنهم هددوا بقتل ماركوني، وأنذره أحدهم، وكان ألمانيا، بأنه قادم إلى لندن لرميه بالرصاص!.. فحول ماركوني خطابه إلى "سكوتلنديارد" فمنعته الحكومة من دخول البلاد!

وقد سألت السنيور ماركوني كم من الوقت سيمضي قبل أن ترى أنت وأنا أجهزة تليفزيون متقنة وعملية في منازلنا؟ فأجاب بأن هذا مرجح في مدى عشر سنوات وربما أسرع من ذلك. وهذه الفترة قد انقضت كما نعلم، ولم يحل دون تقدم هذا الاكتشاف تقدما أعظم، إلا سنوات الحرب الأخيرة فقط..

ألكسندر دوماس .. رواية واحدة خلدته

ولد الكاتب الفرنسي الشهير الكسندر دوماس صاحب رواية "الفرسان الثلاثة" في اليوم الرابع والعشرين من يوليو في العام ١٨٠٢، لفت إليه الأنظار بعد نجاح كتب مسرحية "هنري الثالث" التي أشاد بها فيكتور هوجو، ألف دوماس العديد من القصص التي أصبحت علامة بارزة في الأدب العالمي مثل "الكونت دي مونت كريستو" و"الفرسان الثلاثة" و"حب وانتقام" و "الزنبقة السوداء".

توفي دوماس في ٥ ديسمبر من العام ١٨٧٠ ودفن في مقابر إحدى القرى، إلا أن الرئيس جاك شيراك أمر في العام ٢٠٠٢ بنقل رفاته في تابوت جديد مغطى بقماش مخملي أزرق، وتم نقل التابوت في جنازة نقلها التليفزيون وفي حراسة أربعة حراس يرتدون ملابس مثل ملابس الفرسان في قصته الشهيرة الفرسان الثلاثة إلى مقبرة العظماء في باريس أو بانتيون، كما تحول بيته خارج باريس إلى مزار وتم فتحه للجماهير.

ما هي أعظم قصة مغامرات كتبت؟ أهي "روبنسون كروزو"؟ أم "دون كيشوت"؟ أم "جزيرة الكنز"؟ من الطبيعي أن تختلف الآراء، ولكنني أعطي صوتي "للفرسان الثلاثة"! فقصة الفرسان الثلاثة كانت من أكثر القصص رواجا لمدة تقرب من قرن من الزمان. ولعل جدتك في

شبابها قد انفعلت تأثرا بها عند رؤيتها على المسرح، فضلا عن أن مئات من الناس يقرأونها في هذه اللحظة مترجمة إلى اثنتي عشرة لغة مختلفة في أربعة أركان الأرض!

وألكسندر دوماس الذي كتب قصة الفرسان الثلاثة كان من أغرب القصصيين الذي غمسوا أقلامهم في المحابر! وكان يجب أن يزهو بأن له أكثر من ٥٠٠ طفلا غير شرعي!.. ولئن قيل أنه كان متفائلا أكثر من الواقع في تقديره، فإن الذي لا شك فيه أنه بالرغم من بدانته وقبح مظهره فقد كانت له مع النساء غزوات وغزوات!.. لكنه في جميع غزواته كان يحرص على المباهاة في كل مناسبة بأنه لن يتزوج قط!.. ويبدو أنه غالى في زهوه ذات مرة إلى الحد الذي جعل إحدى معشوقاته تتحداه، فقد جعلت الوصي عليها يشتري جميع ديون ألكسندر بثمن زهيد. وفي تلك الأيام كان في وسع الدائن أن يزج بمدينه في السجن سدادا لديونه، وهكذا فوجئ دوماس ذات يوم بمن يحيطه علما – في أدب – بأن عليه أن يختار بين الزواج أو السجن! فتزوج!

وحتى في شكله كان دوماس يبدو غريبا، فإن ثلاثة أرباع فقط من دمه الذي يجري في عروقه كان دما أبيض، أما الربع الباقي فكان دم عبيد، فقد كانت جدته لأمه "ماري دوماس" جارية زنجية في مزرعة لقصب السكر في جزر الهند الغربية، وكانت فقيرة وغير متعلمة، عاشت وماتت مغمورة في ظلام دامس، دون أن يجول بخاطرها أن حفيدها

سيكون موضع تكريم الأمراء والشعراء وأرباب الثراء، وأنه سيجعل اسمها ذائعا في جميع أنحاء العالم!

وكان ألكسندر دوماس يشبه جدته الزنجية كثيرا؛ فبرغم بشرته البيضاء كالثلج، وعينيه اللتين في زرقة سماء الهند الغربية، فإن شفتيه كانتا غليظتين، وأنفه كبيرا منبعجا، وشعره – برغم صفرته الشديدة – كان ملتفا (أكرت) مثل شعر جدته الزنجية العجوز!

وكان دوماس شرها يحب الأكل الجيد، وكانت شهرته بكفاءته في خلط "الصلصة" أو شي بطة، كشهرته في كتابة القصة!.. كان في مقدوره أن يستهلك في وجبة عددا من الاطعمة المختلفة المحتوية على اللحوم والكافيار، مع ستة أنواع من الخضروات يختتمها جميعا بكميات كبيرة من الجبن! أي كان يمكنه أن يأكل في وجبة واحدة ما يزري بما كان يأكله بسمارك. ومع ذلك، فبالرغم من نهمه لم يكن يشرب خمرا، أو قهوة، أو يدخن على الإطلاق.. وإذا كان منهمكا في الكتابة فإنه لم يكن يأبه للطعام. كان أحيانا ينسى أن يأكل على الإطلاق! فإذا ذهب أحد الأصدقاء لزيارته وهو مشغول بالكتابة فإنه كان يكتفي برفع يده اليسرى بالتحية ويستمر في الكتابة بيده اليمنى!

ولكن كان له مزاج مرهف إلى أبعد حد في نوع الورق والأقلام التي يستعملها؛ فمثلا كان لا يكتب القصص إلا على ورق أزرق فقط، وبنوع خاص من الأقلام، فإذا كان يكتب شعرا استعمل ورقا أصفر ونوعا آخر

من الأقلام، وإذا كتب مقالا لجريدة لم يكن في استطاعته أن يستعمل سوى ورق الكتابة الوردي اللون.. الخ، ومهما كانت الظروف فإنه لم يستعمل الحبر الأزرق مطلقا، فقد كان يصيبه بدوار! ولم يكن يستطيع أن يؤلف مسرحية وهو جالس إلى مكتبه، فلكي يكتب مسرحية كان عليه أن يضطجع على كنبة وتحت مرفقه وسادة لينة جميلة!

نزوات مضحكة ولا شك، ولكن قبل أن نضحك منه دعني أخبرك بما أنتج من مؤلفات، فقد كتب أكثر من مائة مسرحية! وكانت قصصه من الكثرة بحيث أن الطبعة التي ضمت مؤلفاته جميعها تحتوي اليوم على ١٢٠٠ مجلد. تأمل هذا! ألف ومائتي مجلدا! إن هذا على وجه التقريب ضعف جميع مؤلفات جون جالزورني، وجورج برنارد شو، وروبرت لويس ستيفنسون، وهـ "ج" ويلز، ورديارد كبلنج، وماري روبرتس رينهارت، وزان جراي.. ضعفها مجتمعة!

وقد ربح دوماس ما يزيد على المليون جنيه – أي أكثر بكثير جدا من أي كاتب في عصره! وفي الحقيقة أن قليلين جدا من الكتاب في التاريخ كله تمكنوا من الوصول إلى هذا الرقم القياسي، ومع ذلك فقد كان من الفقر، عندما مثلت أولى مسرحياته، إلى حد أنه لم يكن يملك (ياقة) يلبسها ليذهب إلى المسرح، فصنع له ياقة بأن أخذ قطعة من ملاءة بيضاء ولبسها، في تلك المناسبة التي كانت من أهم مناسبات حياته!

وقد كان هذا الرجل الجبار، الأشعث الهندام، يعبد أمه. وقبل أن تمثل أولى مسرحياته بثلاثة أيام فقط أصيبت أمه بشلل، فإذا به في ليلة العرض الأولى التي سجلت أول انتصار له في باريس، يهرع خارجا من المسرح في آخر كل فصل من المسرحية، ويعدو بأقصى سرعة تستطيعها ساقاه الطويلتان، إلى حيث رقدت أمه.. ليرى إذا كانت في حاجة إلى شيء. وفي تلك الليلة التي كانت فيها باريس كلها تتغنى باسمه، نام على حشية وضعت على الأرض عند قاعدة فراش أمه المريضة!

وكانت شخصيات كتب دوماس تبدو له حقائق مجسمة، فكان يحلم بها، ويثرثر عنها، كما لو كانت لأشخاص أحياء! وقد كتب عنها بتوسع يستحوذ على كل مشاعرك. وكان يستغرق أحيانا في قصته استغراقا تاما فيضج بالضحك والنكات مع شخصيات رواياته كما لو كانت أشخاصا حقيقية تجلس أمام مكتبة فعلا. وأغلب القصصيين يرون في الكتابة عملية "طحن" فظيعة، ولكن دوماس كان يستمتع بالوقت الذي يصرفه في نسج خيوط قصصه المحبوكة:

وقد حبته الطبيعة بنشاط الملاكم، جاك دمسي فطاف حول أوربا بسيارة أجره على ظهر جواد وكان يكتب أحيانا خمس روايات في وقت واحد، تظهر يوما بعد يوم في الصحف في حلقات متتابعة، ولم يكن عنده وقت ليقرأ قصصه، ولكن كان يملك الوقت للمبارزة عشرين مرة بالسيف أو المسدس.. وعندما تقدمت به السن، أولع بالخمر والنساء،

والأغاني. لا! لا! إنني مخطئ؛ فهو لم يشرب الخمر، ولم يغن، ولكنه أغرم بالنساء إلى حد كبير!

وإذا كانت باريس تمتاز بميزة، فهي سعة عقل أهلها، ومع ذلك فإن مغامرات دوماس الغرامية كانت "حدثا" مشهورا، وصارت فضيحة حتى في باريس.. حتى لقد انتهى الأمر بأن أعرض عنه ابنه ذاته مشمئزا! بل لقد ذهب صديق لزيارة القصصي الكبير في عصر أحد الأيام، فوجده يكاد يختنق بين عشيقاته؛ فقد كانت إحداهن جالسة على ركبته، وأخرى عند قدميه، وثالثة واقفة خلف مقعده، وقد انحنت لتقبل شفتيه الغليظتين.. ولم يكن ثلاثتهن جميعا يلبسن من الملابس ما يكفي لعمل لباس بحر محترم لعصفور صغير!

وعندما استنزفت الباحثات عن الذهب كل أمواله، هجرنه في استخفاف وازدراء، فقضى دوماس شيخوخته في فقر ووحدة وإهمال، حتى لقد اضطر إلى أن يرهن جواهره ومعطفه ليدفع إيجار المنزل، ولو لم يدفع له ابنه حساب البدال لتضور جوعا! وقبل أن يموت بوقت قصير رآه ابنه يقرأ نسخة من الفرسان الثلاثة. فسأله: "ما رأيك فيها يا أبي؟"، فأجاب الرجل المسن: "لا بأس بها.. إنها جيدة"

جيدة؟ نعم، وأنا أيضا أقول أنها جيدة.. فإذا أردت أن تختبر ذلك بنفسك فتناول قصة الفرسان الثلاثة واقرأها ثانية.. لقد كتبت ملايين القصص منذ ظهور هذه القصة، ولكنها اضمحلت جميعا وجر النسيان

عليها ذيوله واندثرت، أما قصة الفرسان الثلاثة فخالدة، وإلى مئات قادمة من السنين سوف يجلس أولاد أولاد أولاد أولاد أولادك يقرأونها بشغف إذا ما جن الليل.

غاندي .. الأعزل الجبار

ولد الزعيم القومي الهندي موهانداس كارامشاند غاندي والمعروف باسم المهاتما غاندي في الثاني من أكتوبر عام ١٨٦٩ في بورباندار، في الهند، عمل والده مارامشاند غاندي رئيسًا للوزراء في بورابندار ودول أخرى غربي الهند، أما والدته بوتليباي فكانت امرأة شديدة التدين، فشب غاندي عابدًا للإله الهندوسي فيشنو وكان من أتباع الجاينية، وهي ديانة هندية قديمة تتبنى مبادئ اللا عنف والصيام والتأمل واعتماد أنظمة غذائية نباتية. وكان خجولًا لدرجة أنه كان ينام والأضواء مضاءة حتى عندما كان مراهقًا. وفي سن الثالثة عشر تزوج غاندي زواجًا تقليديًا من ابنة تاجر تدعى كاستوربا ماكانجي، وسافر غاندي إلى لندن في عام ١٨٨٨ لدراسة القانون وكان حين ذاك في الثامنة عشرة من عمره. وبعد العودة لم يجد عملا فسافر إلى جنوب أفريقيا، وفي السابع من يونيو عام ١٨٩٣ جاءت اللحظة الحاسمة في حياة غاندي خلال رحلة قطار إلى بريتوريا عندما اعترض رجل أبيض على وجوده في مقصورة من الدرجة الأولى على الرغم من حمله لتذكرة القطار، وعندما رفض غاندي الانتقال إلى آخر القطار سُحب بالقوة وألقي من على القطار في محطة في بيتر ماريتزبرج، في تلك اللحظة قرر تكريس نفسه لمحاربة "مرض التحيز اللوني المستعصي". ومنذ تلك الليلة كبُر الرجل المتواضع ضئيل الحجم ليصبح قوةً عملاقة تمثل الحقوق المدنية.

هناك في الهند كان يوجد رجل صغير الحجم، أسمر اللون، يتدثر بملابس فضفاضة، ويرقد على سرير صغير، ويرفض أن يأكل، ويهدد بالصيام حتى الموت! وإذا قدرناه بحساب المال، كان غاندي رجلا فقيرا؛ فلو باع كل ما يملك فلن تساوي قيمته ثلاثة جنيهات، ولكنه كان أقوى من أي مليونير على الأرض!

ومن الناحية الجسمانية، كان ضعيف البنية، يرفض استعمال القوة والعنف، ومع ذلك فإن تعاليمه وتأثيره الروحي، كانت أعظم بطشا وقوة من مائة معركة في ميادين القتال!

إن سكان الهند يبلغون سدس أهل الأرض جميعا، ومع ذلك فقد ظل الهنود عدة قرون نائمين غافلين، ثم إذا بذلك الرجل الهزيل، الذي كان وزنه أقل من مائة رطل، يوقظهم من سباتهم، ويوجه مداركهم إلى ما يكمن فيهم من قوة جبارة!

وهناك أمور كثيرة غريبة تروى عن غاندي، فمثلا كان عنده "طاقم" من الأسنان الصناعية كان يحمله معه في إحدى ثنايا ثيابه، ويضعه في فمه عندما يريد أن يأكل فقط! وبعد فراغه من الأكل ينزع الطاقم من فمه، ويغسله، ثم يعيده إلى مكانه في ثنية ملابسه..

وكان يتكلم الإنجليزية بلهجة أيرلندية، لأن أحد مدرسيه الأوائل كان أيرلنديا، ولا يلبس إلا الملابس الفضفاضة المتواضعة، لكنه في فترة من الفترات عاش في لندن عدة سنوات يلبس قبعة من حرير، ويغطي

حذاءه بغطاء من الصوف (جيتر) ويمسك بعصا!

وقد تلقى غاندي دراسته العليا في جامعة لندن وصار من رجال القانون، ولكنه في أول مرة حاول فيها المرافعة في ساحة المحكمة ارتعدت ركبتاه، وارتجف إلى حد أنه اضطر إلى الجلوس من شدة الارتباك والتلعثم!.. والواقع أن التوفيق لم يحالفه حين مارس المحاماة في لندن، فكان فاشلا في حياته العملية في تلك المرحلة من شبابه.

وعندما جاء إلى إنجلترا لأول مرة، قبل ذلك بسنين، جعله مدرسه الأيرلندي ينسخ "موعظة المسيح على الجبل" عدة مرات، كتمرين في اللغة الإنجليزية ليس غير، فأخذ غاندي يكتب ويعيد، ساعة بعد ساعة، هذه الآيات: "طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.. طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون".. الخ، فأحدثت هذه الكلمات أثرا عميقا في نفسه، ثم أرسل يوما إلى جنوب إفريقيا ليحصل ديونا ضخمة، فحاول أن يطبق هناك فلسفة الموعظة على الجبل! وقد نجحت التجربة، وتدفق المتقاضون على المهاتما غاندي لأنه كان يفض منازعاتهم بالطرق الودية خارج المحكمة، فيوفر بذلك عليهم الوقت والمال، وسرعان ما أصبح دخل غاندي ثلاثة آلاف جنيها في العام. وهكذا "ورث الودعاء الأرض"!

ولكن هل كان غاندي سعيدا بنجاحه ودخله الكبير؟ كلا! لأنه كان يعلم بأن الملايين من بني وطنه يعيشون في فاقة. وقد رأى آلافا منهم يموتون من الجوع، فظهر له إقبال الدنيا عليه رخيصا وعديم الأهمية، فما

كان منه إلا أن تنازل عن كل أمواله، ونذر نفسه للفقر!.. ومنذ ذلك الوقت كرس حياته لمساعدة الفقراء والمعوزين..

إن عشر سكان الهند اليوم نصف أموات من الجوع، وقد كانوا في موقف ميئوس منه، حتى أن غاندي حاول اقناعهم بوقف التناسل في عالم مفعم بكل هذه التعاسة والفاقة!.. وقد راض غاندي نفسه على الجوع ليرى كيف يمكنه أن يعيش في صحة جيدة وبأقل النفقات، فكان غذاؤه الرئيسي هو الفاكهة ولبن الماعز وزيت الزيتون!

وقد تأثر غاندي تأثرا عظيما بتعاليم أحد الأمريكيين ويدعى "دافيد ثورو"، وكان "ثورو" قد تخرج من جامعة (هارفارد) منذ مائة عام، وأنفق خمسة جنيهات في إقامة "كوخ" لنفسه على شاطئ (وولدن بوند) المنعزل في ولاية (ماساشوستس). وهناك عاش متنسكا، ورفض أن يدفع الضرائب، فزج به في غياهب السجن! وعندئذ وضع كتابا عن "العصيان المدني" قال فيه أن أحدا لا يستطيع إرغام أي فرد على دفع الضرائب!.. ولم يعر الناس كتابه أقل التفات.

ولكن غاندي قرأ الكتاب وهو في الهند بعد ذلك بخمسة وسبعين عاما وقرر أن يستخدم أساليب "ثورو"، وكانت إنجلترا لم تبر بوعدها بشأن منح الهند الحكم الذاتي، فعمد غاندي – كي يعاقب إنجلترا – إلى تحريض سكان الهند على الامتناع عن دفع الضرائب، ولو أدى بهم ذلك إلى غياهب السجون.. كما حرض أتباعه على مقاطعة البضائع

الإنجليزية، وعندما فرض الإنجليز ضريبة على الملح قاد غاندي أتباعه إلى البحر حيث كانوا يستخرجون الملح بأنفسهم!

وكان في الهند نحو ٦٠ مليونا من السكان موصومين – حسب الديانة الهندوكية – بوصمة الرجس الذي يحرم على أحد لمسهم (المنبوذين).. فما معنى هذا؟ لكي تفهم معناه اتخذ نفسك مثلا، وافرض أنك تعيش في الهند، وأن أجدادك منذ ألفي عام كانوا من المنبوذين المحرم لمسهم وفقا للديانة الهندوكية، فإن هذا يعني أنك أنت أيضا منبوذ محرم لمسك اليوم! ويصبح محكوما عليك بأن تتعذب لأجل آثام ارتكبتها روحك في حياة سابقة، فلا يسمح لك مثلا بأن تشرب من ماء بئر في القرية، بل يتعين عليك أن تذهب وتشرب من ماء بعض الجداول الجانبية القذرة! ولا يقتصر الأمر على ذلك بل أن النفوس تعافك حتى لا تجرؤ على دخول حانوت بدال، وإنما يصبح عليك أن تقف في الخارج وعلى مسافة كبيرة، كي يقذف إليك بالطعام من بعيد!

بل إنك إذا اعتبرت منبوذا لا تستطيع أن تدخل إلى حرم محكمة، أو تنخرط في مدرسة، ولا يمكنك حتى السير على قدميك إلا على مسافة خمسمائة قدم من الطريق العام! وإذا حدث أن سقط ظلك على الطعام فإن الطعام يعتبر نجسا غير صالح للأكل ويجب أن يعدم!

تصور أن في الهند ٦٠ مليونا من هؤلاء المنبوذين، وأنهم كانوا يحيون في أرهب وأتعس ظروف ممكنة في العالم، وقد كرس غاندي

حياته للدفاع عن حقوقهم، حتى لقد تبنى بنتا صغيرة من المنبوذين (المحرم لمسهم) ورباها على أنها ابنته!

إن ملايين من البشر تطلعوا إلى غاندي على أنه قديس، وآخرين اعتقدوا أنه إله هندي متجسد؛ ففي عالم مملوء بالجشع والحقارة والأنانية، لم يطلب هذا الرجل لنفسه شيئا، بل إنه أراد أن يموت ليتمكن الآخرون من الحياة! وقد كان له ما أراد. ومات غاندي، ولكن الله أراد له الخلود فأماته ميتة الشهداء!

هيلين كيلر.. المعجزة البشرية

وُلِدت هيلين كيلر في وذلك في السابع والعشرين من شهر يونيو من عام ١٨٨٠م، في ولاية آلاباما الأمريكيّة، والدها هو العقيد آرثر كيلر، الذي كان يعمل في الجيش الكونفدراليّ، وكانت أمّها هي كيت آدامز؛ أثرت الحرب الأهليّة على عائلة هيلين، وتسبَّبت في خسارتها لأموالها، ممّا جعلها تعيش عيشة مُتواضِعة، إلى أن افتتحَ والدها صحيفة محلّية عام ١٨٨٥م، ثم تمّ تعيينه في منصب جنرال في المنطقة الشماليّة من مدينة ألاباما.

كانت هيلين طفلة سليمة ومُعافاة عندما تمّت ولادتها، إلى أن أُصِيبت بمرض غير معروف وهي في عُمر ١٩ شهراً، ممّا تسبَّب في إصابتها بالعمى والصَّمَم، وقِيل إنّ المرض هو مرض الحُمّى القُرمزيّة، أو مرض الحَصبة الألمانيّة، عندما بلغت السادسة من العُمر، أحضرت لها الأسرة مُعلِّمة خاصّة تُدعَى آن سوليفان، من معهد بيركنز المُختَصّ بالمكفوفين، بدأت معها مهمتها في مارس عام ١٨٨٧م، واستمرَّت معها حتى تُوفِّيت في أكتوبر عام ١٩٣٦م، وفي عام ١٨٩٠م، انضمَّت هيلين كيلر إلى مدرسة هوراس؛ لتلقي دروس التخاطُب الخاصّة بالصُّم، وفي عام ١٨٩٦م، التحقَت بمدرسة كامبريدج الإعداديّة الخاصّة بالفتيات، ومع مرور الوقت، أصبحت قصّة هيلين معروفة بشكل كبير،

ممّا ساعدها في التعرُّف على العديد من المشاهير، ومنهم الكاتب الشهير مارك توين، الذي عرَّفَها إلى صديقه هنري روجر، أحد الإداريّين في شركة ستاندرد أويل، حيث ساعدها على الالتحاق بكلية رادكليف ودَفَع تكاليف دراستها، كما ساعدتها آن سوليفان من خلال شَرْح النصوص، و المحاضرات.

تخرَّجت هيلين كيلر في كلّية رادكليف في عام ١٩٠٤م، وشغلَت هيلين ما بين عامَي ١٩٤٦م و١٩٥٧م منصبَ مُستشارة العلاقات الدوليّة في إحدى المُؤسَّسات الخاصّة بالمكفوفين، تُوفِّيت هيلين كيلر في الأوّل من شهر يونيو عام ١٩٦٨م، وكانت تبلغ الثامنة والثمانين من العُمر، حيث أُحرِقَت جُثَّتها، ووُضِع الرماد الخاصّ بها في كنيسة القِدِّيس جوزيف بكاتدرائيّة واشنطن، إلى جانب رماد آن سوليفان.

قال الكاتب الأمريكي الفكه "مارك توين" ذات مرة: "إن أدعى الشخصيات إلى الإعجاب والاهتمام في القرن التاسع عشر كله شخصيتان: نابليون، وهيلين كيلر!"

وهيلين كيلر هي المرأة العمياء الصماء البكماء، التي أثبتت أنها – برغم عاهاتها الثلاث الرئيسية – أنفع للإنسانية من كثير من البشر! وقد قال مارك توين عبارته المذكورة يوم أن كانت هيلين كيلر لا تعدو الخامسة عشر من عمرها، وهي لا تزال حية ترزق إلى اليوم وقد نيفت على الثمانين، احتفظت خلالها بمكانتها؛ فهي في الواقع من أعجب شخصيات القرن

العشرين، كما كانت من أعجب شخصيات القرن التاسع عشر!

وهيلين كيلر عمياء تماما، ولكنها قرأت مع ذلك من الكتب أكثر بكثير مما استطاع كثير من المبصرين أن يقرأوا! ولعلها قرأت مائة ضعف ما قرأه الرجل العادي المتوسط، بل إنها "ألفت" سبعة كتب، كما ألفت فيلما سينمائيا عن حياتها ومثلت فيه! وهيلين كيلر صماء تماما مثلما هي عمياء تماما، ومع ذلك فهي تستمتع من الموسيقى بما يفوق حظ الكثيرين من ذوي الآذان السليمة..!

وقد سلخت من عمرها تسع سنوات وهي بكماء لا تنطق حرفا!.. ومع هذا ألقت محاضرات في كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية، وطافت بجميع بلاد أوربا وبعض بلاد إفريقيا..

وعندما ولدت هيلين كيلر، كانت طفلة عادية من كل وجه، فلما صار لها من العمر سنة ونصف (كانت خلالها تسمع وترى، وتوشك أن تتكلم) حل بها مرض أصابها بالصمم المفاجئ، وبالبكم، والعمى، حتى صارت عبارة عن كتلة من اللحم الحي.. مجردة من كل حواس إنسانية، ثم أخذت تنمو وتكبر وكأنها حيوان متوحش في غابة، فهي تحطم كل شيء لا يروق لها، وتحشر الطعام في فمها بيديها كلتيهما.. وإذا حاول أحد أن يردها عن ذلك، انطرحت على الأرض وراحت ترفس وتضرب الأرض محاولة أن تصرخ، ولكنها لا تستطيع!

وكتب والداها تحت تأثير يأسهما المفجع إلى معهد "بيركنز" للعميان

في مدينة بوسطن، ملتمسين إرسال معلمة خاصة لابنتهما.. وهكذا دخلت "آن مانسفيلد سوليفان" في حياة هيلين كيلر وكأنها ملك كريم صور من نور وأمل، وكانت آن في ذلك الوقت لا تعدو العشرين من عمرها حين شرعت في تلك المهمة العسيرة التي بدت مستحيلة! وهل هناك أشق من تعليم تلميذة عمياء، بكماء، صماء؟ وبواسطة أي الحواس إذن تصل إلى تعليمها، وإلى عقد الصلة بينها وبين العالم الخارجي؟

لكن "آن" كانت كبيرة القلب، صقلتها التجارب المرة، فهي فتاة يتيمة، دخلت مع أخيها ملجأ الأيتام في "تيوكسبري" بولاية "ماساشوستس". ولم يكن لهما مكان، فكانا يبيتان في غرفة الموتى، وهي غرفة يوضع فيها من يموتون ريثما يحل ميعاد دفنهم! ولم يتحمل شقيقها هذه الحياة فقضى نحبه بعد ستة أشهر.. أما هي فأوشكت على العمى في سن الرابعة عشرة، فأرسلت إلى معهد بيركنز في بوسطن كي تتعلم القراءة بأصابعها، بيد أن القضاء لطف بها فتحسن بصرها، ولم يصبها العمى إلا بعد ذلك بنصف قرن من الزمن!

وليس في الإمكان شرح المعجزة التي أحدثتها "آن" في حياة هيلين كيلر، فإن ذلك كان عملا خارقا للعادة.. لم يسبق له مثيل.. وقد فصلته هيلين كيلر نفسها في كتابها عن نفسها الذي سمته "قصة حياتي". ومن يقرأ هذا الكتاب، يرى مبلغ السعادة التي شعرت بها هيلين في أول مرة حين اكتشفت أن هناك لغة إنسانية يمكنها أن تتفاهم بها مع الناس!

ومن تلك اللحظة بدأت تحب الحياة، وتتلهف في نهاية كل يوم على مطلع اليوم الجديد الذي يليه..

فلما بلغت هيلين العشرين من عمرها كان تعليمها قد تقدم جدا، فدخلت ومعها معلمتها كلية "رادكليف"، وفي هذه الأثناء استعادت ملكه الكلام، وكانت أول جملة نطقتها: "أنا لم أعد خرساء!"

وهي الآن تتكلم كلاما عاديا، لا يشوبه إلا شبه لكنة طريفة، وهي تكتب كتبها ومقالاتها للصحف على آلة كاتبه بحروف "برايل" أو النقط البارزة، وإذا ما أرادت أن تصحح بعض الخطأ على الهامش، استخدمت دبوس شعرها في إحداث بعض الثقوب على الورق!

وتعيش هيلين في ضاحية قرب مدينة نيويورك، ولا يبعد منزلي عن مكان سكنها سوى مسافة قصيرة، وكثيرا ما رأيتها – أثناء تنزهي مع كلبي الصغير – تتمشى في حديقة بيتها مع كلبها الذي تقتنيه للحراسة.

وقد لاحظت عليها أنها تحدث نفسها أثناء النزهة، ولكن لا بشفتيها كما نفعل نحن، بل بإشارات من أصابعها! وقد أخبرتني سكرتيرتها أنها، على خلاف الشائع عن العميان زورا وبهتانا، لا تتمتع بحاسة للاتجاه أدق من حواسنا، فكثيرا ما تضل طريقها في بيتها إذا بدلت مواضع قطع الأثاث، كما أن حاسة الشم عندها كالتي عندنا لا أكثر. أما حاسة اللمس فهي على العكس مرهفة جدا عندها، حتى أنها تستطيع أن تفهم ما يقوله أصدقاؤها إذا وضعت أناملها برفق على

شفاههم وهم يتكلمون!.. وتستطيع أن تستمتع بالموسيقى إذا وضعت أناملها على خشب الكمان أو "البيانو" أثناء العزف، وبالطريقة نفسها تستمع إلى المذياع بأن تتحسس التموجات الصادرة عن بوقه، وتسمع إلى الغناء بأن تضع أناملها على حنجرة المغني أو المغنية!

وإذا صافحتها بيدك اليوم، ثم قابلتها بعد خمس سنوات، تذكرتك فورا بمجرد لمسها يدك.. بل وعرفت فورا إن كنت مسرورا أو منحرف المزاج!

وهي تعشق السباحة والتجديف، وتهوى التوغل في الغابات ممتطية صهوة جواد!.. كما تجيد لعبة الشطرنج بأدوات لعب صنعت خصيصا لها، وتلعب "لعبة الصبر" بالورق ذي الأرقام البارزة، وفي الأيام الممطرة تلازم بيتها وتقطع الوقت بحبك الصوف أو نسج "الكروشيه".

ومع أن العدد الغالب منا يعتقد أن أشد كارثة تصيب الإنسان هي ابتلاؤه بالعمى، إلا أن هيلين كيلر قد أقامت الدليل في مذكراتها على أن الصمم كارثة أفدح كثيرا من العمى! ففي ساعات الظلام الحالك والصمت البالغ، اللذين يفصلانها عن العالم ويجعلانها بمعزل عنه، لا تتوق إلى شيء قدر اشتياقها إلى سماع همسة بشرية تنبعث من فم صديق، فالأصوات في اعتقادها أهم كثيرا للإنسان من الأشكال والألوان!

شكسبير.. قطب الأدب الإنجليزي وعماده الأول

ولد "وليم شكسبير" في "ستراتفورد أون أفون" – بإنجلترا – وتم تعميده في ٢٦ أبريل سنة ١٥٦٤

لم يتلق من الدراسة إلا ما يعادل المرحلة الأولية. والتحق في الثانية والعشرين بفرقة مسرح "بلاكفريارز" بلندن، فلم ينقض عام حتى غدا صاحب الفرقة المسرحية، أنتج أربعا وثلاثين مسرحية، بين فكاهية وتاريخية وتراجيدية، إلى جانب القصائد والمقطوعات الشعرية التي بلغ عددها ١٥٤ قصيدة خلدت اسمه في تاريخ الأدب، تزوج في سن الثامنة عشرة، وأنجب ثلاثة أطفال، ومات في ستراتفورد في ٢٣ أبريل سنة ١٦١٦ عن ٥٢ عاما.

لم يلق أحد بالا إليه وهو على قيد الحياة، بل إن اسمه ظل شبه مجهول خلال المائة عام التالية لوفاته! ولكن منذ ذلك التاريخ حتى اليوم كتبت عنه آلاف الكتب، وملايين الكلمات، وأثار اسمه من التعليقات على أدبه وشخصه أكثر من أي أديب آخر في تاريخ العالم، بل إن آلافا من الناس "يحجون" كل سنة إلى المكان الذي ولد فيه!

وقد زرت تلك البقعة عام ١٩٢١، وتعمدت أن أذرع الحقول الممتدة منها إلى قرية "سلاتاري" القريبة، سالكا نفس الطريق الذي كلت

عن السير فيه قلما الشاب الريفي وليم شكسبير كلما مضى لمقابلة محبوبته "آن هويتلي"!.. ترى هل كان يخطر بباله يومئذ أن اسمه سوف يقرع أسماع الأجيال في إطار من المجد؟.. وهل كان في وسعه أن يصدق أن حبه المذكور، الجميل، المثالي كان مضمونه الأسى والحسرة، وسنوات من الندم..

مأساة حياة شكسبير كانت في زواجه! كان قد أحب آن هويتلي، لكنه في الساعات المتأخرة في الليالي العمرة كان يمتحن الأقدار باللهو مع فتاة أخرى هي "آن هاثاواي".. فلما علمت آن هاثاواي أن حبيبها قد استخرج رخصة زواج تمهيدا لعقد قرانه على غيرها، صعقت.. جنت فزعا ويأسا!.. وفي نوبة يأسها اندفعت تطرق أبواب جيرانها، لتبكي عارها أمامهم، وتوضح لهم لماذا ينبغي على شكسبير أن يتزوجها!.. وأحس جيرانها البسطاء الطيبون بالخزي الذي تعانيه التعسة، واستبشعوا فعلة الشاب، فمضوا في اليوم التالي مباشرة إلى دار العمدة والجهات المختصة وشرعوا في اتخاذ الإجراءات الرسمية لتزويج شكسبير من ضحيته آن هاثاواي!

وكانت العروس تكبر عريسها بثمانية أعوام، ومنذ البداية كان زواجهما رباطا تعسا، وقد حذر شكسبير فيما بعد قراء رواياته الرجال من أن يتزوجوا نساء يكبرنهم في السن!.. والواقع أن شكسبير لم يقض مع زوجته إلا وقتا ضئيلا للغاية، أما أكثر أيام حياته الزوجية فقد كان يقضيها في لندن، بحيث لم يكن يعود إلى أسرته إلا نحو مرة كل عام!

وتعتبر بلدة "ستراتفورد أون أفون" اليوم من أجمل بلدان إنجلترا، بحدائقها الغناء، وبيوتها الصغيرة الأنيقة، وشوارعها الملتوية الظريفة، لكنها في أيام شكسبير كانت قذرة يعمها الفقر، وتجتاحها الأمراض والأوبئة – إذ لم يكن فيها أنابيب للمجاري – وكانت الخنازير تعيث في شوارعها الرئيسية فسادا وتلتهم الفضلات. وقد حكم مرة بغرامة على والد شكسبير – الذي كان من موظفي البلدة الرسميين – لأنه ألقى خارج بابه كومة من مخلفات (الإسطبل)!

ولو عقدنا مقارنة بين عصر شكسبير وعصرنا الحاضر، لأدركنا أننا نعيش الآن في أيام رخية هنيئة بالقياس إلى تلك الأيام؛ ففي زمن شكسبير كان نصف سكان البلدة يعيشون على البر والإحسان، كما كان أكثرهم أميين، بل إن والد شكسبير ووالدته وأخته وابنته ثم حفيدته، كانوا جميعا يجهلون مبادئ القراءة والكتابة!

ومن عجائب المفارقات أن الرجل الذي قدر له أن يصبح عنوانا لقوة ومجد الأدب الإنجليزي، اضطر إلى ترك المدرسة وهو بعد في الثالثة عشرة، كي يعمل ويعين أباه الفلاح في حلب البقر، ورعاية الماشية، وصنع الزبد، ودبغ الجلود!

ثم ضاق بحياة الريف فهاجر إلى العاصمة، حيث اشتغل حارسا للجياد والعربات أمام أبواب المسارح.. ثم انتقل إلى داخل المسارح حين احترف التمثيل، فلم تنقض عليه خمس سنوات حتى كان يربح

دخلا لا بأس به من مهنته الجديدة، حتى لقد اشترى أسهما في مسرحين، وصار يقرض المال مقابل فوائد عالية!.. وفي تلك الفترة بلغ ايراده نحو ثلاثمائة جنيها في السنة (مع ملاحظة أن القوة الشرائية للنقود كانت يومئذ أكبر منها اليوم بنحو أثني عشر ضعفا!).. ثم لم يبلغ شكسبير الخامسة والأربعين حتى كان دخله يتراوح حول الأربعة آلاف من الجنيهات!.. وحين مات كان معدودا من الأغنياء بحسب مقاييس ذلك العصر..

ولكن، كم من المال تحسبه ترك لزوجته في وصيته؟ ولا بنسا واحدا! لم يترك لها غير سرير نومه المستعمل.. وحتى هذا لم يفكر فيه إلا في آخر لحظة، فكتبه حشرا بين السطور بعد أن انتهى من صياغة الوصية!

وبعد وفاته بسبع سنوات نشرت مسرحياته لأول مرة في صورة كتب، وأنت تستطيع اليوم الحصول في نيويورك على نسخة من تلك الطبعة الأولى مقابل مبلغ مائتين وخمسين ألفا من الجنيهات! – مع أن مؤلفها شكسبير نفسه لم يقبض أجرا على بعض مسرحياته الخالدة ذاتها – مثل هملت، أو مكبث، أو حلم ليلة صيف– أكثر مما يوازي الآن مائة جنيها للواحدة!

وقد راجت في وقت من الأوقات شائعات – وألفت في ذلك عشرات من الكتب – تزعم أن كاتب مسرحيات شكسبير هو سير "فرنسيس بيكون" وليس شكسبير، وإن هذا الاسم الأخير ما هو إلا اسم وهمي مستعار اتخذه

بيكون ليستتر وراءه، خجلا من أن يكتب نبيل مثله في الحب، ويمثل ما يكتبه على المسارح!.. وبالتالي تزعم تلك الشائعات أن شكسبير شخص خيالي لم يوجد أصلا!.. لكنني سألت في ذلك الباحث المحقق "دكتور س. ا. ثاننباوم" الذي ألف عدة كتب عن شكسبير، فقال أن هناك أدلة قاطعة تؤكد أن مؤلف مسرحيات شكسبير هو "وليم شكسبير" الذي ولد وعاش زمنا في بلدة "ستراتفورد أون أفون"!

وقد طالما وقفت أمام قبر شكسبير، أردد تلك العبارات المفزعة التي كتبها هو على قبر أحد أبطال رواياته: "أيها المار" ترفق فلا تحفر هذا التراب، فلتباركك السماء إذا تجنبت المساس بهذه الأحجار، ولتلعنك إذا جرؤت على تحريك عظامي!"

وعندما مات شكسبير دفن في كنيسة بلدته الصغيرة "ستراتفورد" أمام منبر الواعظ.. فهل أعطوه مكان الصدارة والشرف ذاك تقديرا لعبقريته؟

كلا، بل إن الشاعر الذي صار فيما بعد قطب الأدب الإنجليزي وعماده الأول، إنما دفن في تلك الكنيسة لأنه كان يقرض الأموال لأهل بلدته، ولو لم يفعل ذلك مبتكر شخصية المرابي شايليك – تاجر البندقية – لكانت عظامه اليوم ضائعة المعالم في قبر لا يعرف أحد مكانه!

ستالين .. أقوى رجل في العالم

وُلِدَ جوزيف ستالين في ١٨ ديسمبر عام ١٨٧٩ في مدينة جوري بجورجيا. وعندما بلغ ستالين ١١ عامًا، ارسلته امه الى المدرسة الروسية للمسيحية الارثوذكسية ودرس فيها، وهناك بدأت أنشطته الاشتراكية، مما ادي الي طرده من المدرسة ١٨٩٩، لم يعد إلى قريته وبقى في تفليس حيث وجد فرصة عمل كمدرس ثم ككاتب، و في عام ١٩٠١، انضم الى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي، و في عام ١٩٠٢، القي القبض عليه لتنسيق اضراب عمالي ونفي الى سيبيريا، لكنه تمكن من الهرب، وواصل عمله في الخفاء، فاستطاع ان يجمع الاموال من خلال عمليات السطو والخطف والابتزاز، وارتبط اسمه بعملية السطو على بنك عام ١٩٠٧، مما ادى الى سقوط عدد من القتلى وسرقة حوالي ٢٥٠ الف روبل اي حوالي ٣,٤ مليون دولار امريكي. وفي فبراير عام ١٩١٧، بدأت الثورة الروسية، وبحلول شهر اكتوبر، كانت الثورة قد اكتملت واستطاع فلاديمير لينين ان يسيطر على الحكم.

وبدأ صعود ستالين إلى السلطة منذ توليه لمنصب أمين عام الحزب الشيوعي، ثُمَّ أصبح حاكمًا ديكتاتورًا للاتحاد السوفيتي عقب وفاة فلاديمير لينين. فَرَض ستالين تطوير الصناعة والزراعة التعاونية بالقوة، مما أدى إلى وفاة الملايين نتيجةً للمجاعة وأُرْسِل الآخرون إلى معسكرات العمل في سيبيريا.

إنه أقوى رجل في العالم اليوم، تعبده ملايين من الناس، وتمقته ملايين أخرى!.. كان والداه يوما في حكم العبدين، يباعان ويشتريان مع الأرض التي يعيشان عليها.. ولكن ابن ذينك العبدين السابقين يحكم اليوم سدس الكرة الأرضية، ويتحكم في مصائر أكثر من مائتي مليون من البشر!

قد تعجب به، أو قد تحتقره، لكن هناك شيئا واحدا مؤكدا، هو أنك لا تستطيع أن تتجاهله. ولست أفهم كيف يمكن إلا أن يحترم الإنسان إخلاصه – مدى الحياة – لهدف واحد، لم يتحول عنه قط!

اسمه ستالين، جوزيف ستالين، لكن اسمه الحقيقي في الواقع كان "يوسف فيساريونوفتش دزوجا شفيلي"!.. ولد في أول ديسمبر سنة ١٨٧٩ في بيت صغير متواضع – كان ايجاره الشهري ستة شلنات (ثلاثين قرشا!) – بإقليم "جورجيا" المشرف على البحر الأسود، والغني بحقول البترول الروسية..

وأهل "جورجيا" لا يزالون يتكلمون لغتهم الخاصة، برغم ضم بلادهم إلى روسيا منذ ١٤٠ سنة! بل إنه عاش طيلة حياته يتكلم الروسية بلهجة أهل جورجيا!.. وقد تعجب إذا علمت أن اللغتين تختلفان إحداهما عن الأخرى بقدر اختلاف اللغة الإسبانية مثلا عن الإنجليزية!

وقد ألغى القيصر إسكندر الثاني نظام العبيد في روسيا قبل أن تلغيه أمريكا بثلاث سنوات، فلما ولد ستالين الصغير سنة ١٨٧٩ كان أبواه قد أصبحا في عداد الأحرار.. الأحرار في أن يكسب الأب خبزه اليومي من إصلاح الاحذية، وتكسبه الأم من غسل الثياب..

فلنر كيف وصل جوزيف ستالين إلى جعل نفسه الحاكم المطلق على أراضي روسيا الشاسعة، التي حكمها قبله قياصرة روسيا لأكثر من خمسمائة عام.. أعني لنر كيف صار "يوسف فيساريونوفيتش دزوجا شفيلي": جوزيف ستالين!

بدأ أولا بتلقي العلم، الذي رفعه في بيئته الوضيعة الفقيرة ومنحه نظرا ثاقبا وهدفا لحياته، وكان أبوه قد أراده أن يصير إسكافيا، لكن أمه كانت لها أحلام – شأن سائر الأمهات! – بل إن هذه الأم الجاهلة التي ولدت في ظل العبودية، والتي كانت تكسب قوتها من غسل الثياب وحياكتها، تاقت إلى أن ترى ابنها يعيش حياة أبهج من حياتها، في دنيا أفضل من الدنيا التي عرفتها! وكانت قد ألفت التردد على الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، لتوقد الشموع أمام مذبح قديس من القديسين، وتركع وتبكي وهي تصلي كي يصبح ابنها "يوسف" قسا يكرس حياته لخدمة الدين.. وما كانت لتعبأ بفداحة الجهود أو طول المدة التي تلزمها لبلوغ أمنيتها هذه، فقد كانت تسعى إلى هدف.. وهدف مقدس!

وبفضل بحثها الدائب عثرت لابنها على مكان في معهد لتعليم الدين في مدينة "تيفليس"، فالتحق ستالين بذلك المعهد، وبقي فيه سنوات، ولكن ذات يوم وهو في الخامسة عشرة، حدث شيء.. شيء كان في ذاته تافها، ولكن قدر له أن تتولد عنه "مضاعفات" هزت العالم من أساسه في المستقبل: وقع في يد الفتى ستالين كتاب أحدث في

تاريخ البشرية من التأثير ما لم يحدثه أي كتاب آخر غير ديني، وكان الكتاب المذكور هو "رأس المال" لكارل ماركس!

وأحدث الكتاب في نفس الفتى هزة ألقت به من فورها في زمرة الأتباع "السريين" لكارل ماركس! وجعلته يقرر أن يكرس حياته للكفاح من أجل مصالح قومه ومواطنيه، فقد ثارت نفسه على الفقر المدقع الرهيب الذي كان يعيش في دوامته عشرات الملايين من الفلاحين الروس، وكان فقرا خياليا، يصعب علينا حتى أن نصدق به.. فإن الكثيرين من أولئك الفلاحين الروس كانوا عاجزين عن شراء الملح الذي يملحون به طعامهم!!

وآمن ستالين بأن الطريق الوحيد لتحسين أحوال معيشة أولئك المواطنين هو الثورة!.. لكن نشاطه الثوري الذي انغمس فيه منذ ذلك اليوم أدى به إلى الطرد من المعهد الديني الذي كان يدرس فيه، فعاش الربع قرن التالي يعمل بغير توان لتحقيق مثله العليا، وفي سبيل ذلك رضي مختارا بأن يعيش معيشة الحيوان الطريد، فعاش سنوات بلا بيت! وكانت ينقضي عليه أسابيع طويلة لا يبيت خلالها في المكان الواحد مرتين!.. ومن أجل مبادئه المذكورة قضى ثمانية أعوام من حياته.. في السجن!

لكنه طيلة تلك السنوات الشاقة من الجهاد والفرار، والاعتقال، لم ينقطع يوما عن العمل من أجل "الحزب" بإلقاء الخطب الثورية، وتحرير صحيفة ثورية كان يصدرها من زنزانته بسجن سانت بطرسبرج!

وكان ستالين ثوريا من ذلك الطراز المتفاني، المتأهب على الدوام

لبذل حريته بل وحياته ذاتها إذا اقتضى الأمر!.. وعاش بهذه الروح وهذا الشعور أسبوعا بعد أسبوع وعاما بعد عام، فلما فشلت ثورة سنة ١٩٠٥ فر "لينين" و"تروتسكي" إلى سويسرا للنجاة بنفسيهما.. أما ستالين فأبى أن يفر، بل بقي في روسيا يتحدى بوليس القيصر، في وقت كان القبض عليه فيه يعني احتمال إسناد ظهره إلى حائط، ورميه بالرصاص!

وخلال مدة غياب لينين في المنفى، دأب على تهريب المقالات الثورية على ورق السجاير أو في داخل علب الصفيح التي تخبأ في براميل النبيذ، فكان ستالين يتلقاها فينشرها في صحيفته السرية!

ونفي ستالين إلى سيبيريا ست مرات، وفر من المنفى خمس مرات، ليعود فيستأنف تغذيته لبذور الثورة يوما بعد يوم، فإن قضبان السجون، وسياط الجلاد، والتهديد بالموت، لم تفلح كلها في إرهابه، بل إنها على العكس زادت من تعمق ورسوخ عقيدته الواحدة التي لا تتبدل: أن يسقط حكومة بلاده المستبدة ويعطي أرض روسيا وثروتها للشعب!

ولكن، في المرة الأخيرة – السادسة – التي قبض فيها بوليس القيصرية على ستالين، لم يبق محل لإفساح أية فرصة له في الهرب، فأرسلوه في حراسة شرطيين إلى منفى سحيق كان الذاهب إليه في حكم المفقود، والعائد منه في حكم المولود! وهناك، في الأكواخ الثلاثة المنعزلة التي يتألف منها المنفى، والواقعة في أقصى صحراء سيبيريا الجليدية، على بعد أقل من ١٨ ميلا من المنطقة القطبية، ألقي ستالين

لمصيره، دون حاجة إلى قيود أو سدود!.. وما جدوى القيود وهو لو حاول الفرار لمات حتما في الطريق، بردا وجوعا؟

وعاش الأسير في ذلك المنفى الرهيب سنوات أربع، كان الطعام الذي يصل إلى المستعمرة خلالها من الندرة بحيث ينطبق عليه المثل الروسي القائل: "إن حشرة البق تعتبر في الصحاري الجليدية لحما شهيا!".. بل إنه كان إذا أراد خشبا للتدفئة اضطر للذهاب إلى الغابة لقطعه وحمله إلى الكوخ بنفسه!.. وكان البرد والصقيع من الشدة بحيث لم يكن في طوقه أن يقرأ أو يقوم بأية دراسة. بل كان قصاراه أن يؤدي عملا يدويا شاقا كي يحمي جسده من التجمد إلى درجة الموت، وبرغم أن موقفه كان ميئوسا منه، فإن ستالين لم يفقد الأمل يوما، وإنما آمن بأن لابد سوف يأتي يوم يتمكن فيه من النجاة! وقد نجا بالفعل: نشبت ثورة ١٩١٧، فأطلق سراحه!

واسم ستالين مشتق من اللفظ الروسي "ستال"، ومعناه "الصلب" أو الفولاذ! وقد صدقوا، فإن عوده كان أصلب من صفيحة الفولاذ البارد التي لا تنثني.. والواقع أن ستالين بالذات كان صاحب الفضل، أكثر من أي رجل آخر، في احتفاظ الحزب البلشفي بوحدته وتضامن أعضائه خلال تلك السنوات العصيبة، الأمر الذي مكن من قيام الثورة التي أطاحت بحكومة القياصرة.

وقد تزوج ستالين مرتين: أما زوجته الأولى "كاترين" فكانت فتاة شابة ضئيلة التعليم، وقد ولدت له ابنا، لكن حياتهما الزوجية كانت تعسة

للغاية، فقد كان ستالين مطاردا بصفة شبه دائمة من البوليس، فلم يكن يستقر في بيته أياما حتى يغادره هاربا من جديد تحت جنح الظلام، ثم لم تنقض على زواجهما أربع سنوات حتى ماتت كاترين بداء الصدر..

ولم يتزوج ستالين مرة ثانية حتى أوفى على الأربعين، وعندئذ عقد زواجه على فتاة في السابعة عشرة!.. وقد ماتت هذه سنة **١٩٣٤** من تسمم دموي أعقب انفجارا في الزائدة الدودية. ويومئذ دفنت الزوجة باحتفال ديني أورثوذكسي كبير، خلافا للعرف السوفييتي السائد!

وأنجبت له هذه الزوجة الثانية ولدا وبنتا، وقد اشترك كلا ابنيه في القتال خلال الحرب الأخيرة، فكان الأكبر ضابطا في المدفعية، والأصغر في القوات الجوية – وقد كوفئ الأخير على بسالته بوسام كبير!

ويقطن ستالين – بصفته الحاكم الأعلى لروسيا – بقرب القصر الإمبراطوري الذي عاش فيه القياصرة تسعة وستين عاما. وقد كان في وسعه – لو أراد – أن يقيم في حجرات ضخمة تزينها اللوحات الزيتية الخالدة والسجاد الثمين، وينام في الفراش الذي نام فيه القياصرة، لكن جوزيف ستالين اختار لسكنه شقة صغيرة مكونة من أربع غرف، كان يقطنها يوما أحد خدم القيصر .. أما طعامه فيأتيه من مطبخ قصر "الكريملين"، ويقدمه إليه على المائدة جندي، وهو نفس الطعام الذي يقدم للمئات من موظفي القصر الحكومي!

وستالين يمقت الظهور، ويرتبك في حضرة الغرباء. وقد قضى بعض سفراء الدول العظمى أعواما طويلة في موسكو بغير أن يقع بصرهم عليه مرة!

لكنه مولع بالتأنق في ملبسه، وله ذوق خاص في اختيار نسيج ستراته وألوانها. وقد قابله المبعوث الأمريكي المرحوم "يندل ويلكي" أربع أو خمس مرات، فلم يره بنفس الثياب أكثر من مرة!.. وفي إحدى المرات كانت سترته زرقاء فاتحة، وبنطلونه قرنفلي اللون، وحذاؤه أسود لامعا..

وحين يهنئه الزائرون على المعجزات التي حققها، يكتفي بالجواب: "إنها لا شيء بالقياس إلى ما نعتزم القيام به".. وهو، برغم جبروته، من الفطنة بحيث يدرك أنه ليس معصوما من الخطأ، وقد كتب مرة: "إن فضيلة الإنسان الرئيسية هي أن تكون له الشجاعة ليعترف بأخطائه، والقوة على أن يصلح هذه الأخطاء في أقصر وقت!"

وستالين يصل إلى تحقيق أغراضه، لكن أساليبه تكون أحيانا فظة قاسية، حتى لقد قال فيه لينين، أبو الثورة الروسية: "هذا الطاهي سوف يترك الطعام يسخن حتى درجة الغليان!".. ولكن، لو لم يعد هذا الطاهي الروسي وجبة في درجة الغليان، لهتلر وأتباعه النازيين، فهل في وسعنا أن نتصور كم ألفا آخرين من جنود الحلفاء كان لا بد من التضحية بأرواحهم، قبل أن تنهار قلعة هتلر؟!

ذلك أن جوزيف ستالين – الطاغية – لكي ينقذ روسيا، ساهم بنصيب كبير في إنقاذ الديمقراطية. وإنه ليفزع المرء أن يفكر فيما كان عساه أن يحدث لنا – لك ولي – لولا بطولة جيش ستالين الأحمر وتضحياته!

موزار.. يصنع السجق ويؤلف الألحان

فولفغانغ أماديوس موزار، موسيقار نمساوي (١٧٥٦-١٧٩١) وكان ترتيبه الطفل السابع والأخير لوالده ليوبولد وأمه ماريا آنا. ولم يبق على قيد الحياة من الأطفال سواه والطفلة الرابعة ماريا. سكنوا في منزل في جيتريدج غاز، وهو حاليا معرض، ومتحف لموزار. وقد بدأ التأليف الموسيقي في سن الخامسة من عمره، واستمر في ذلك حتى رحيله المبكر وهو في الخامسة والثلاثين، تدفقُ إبداعه بغزارة لم يقلل من قيمته، مما جعل مؤلفاته تُثري عالم الموسيقى بروائع ما زالت تُثير الدهشة حتى اليوم.

وبذلك استحق بجدارة لقب عبقرية الموسيقى والموهبة الاستثنائيّة؛ لأن ما أنجزه من أعمال وهو في سن الطفولة كان باهراً ومتفوقاً، وما أنجزه في سن النضج كان أكثر إبهاراً وتفوقاً.

حدثني ذات مرة الراحل "ليوبولد أوبر" أستاذ الكمان الروسي العظيم؛ فقال: إذا كنت تريد أن تكون موسيقيا عظيما فإنه ينبغي عليك أن تكون قد ولدت فقيرا ! ثم أضاف أن هناك ثمة شيئا – وقد سلم بأنه لا يعرف ماهية هذا الشيء بالضبط! – شيئا يغرسه الفقر في النفس.. شيئا روحانيا جميلا يسمى الأحاسيس، والقوة، والتعاطف والرقة!

وقد كان موزار من الفقر بحيث لم يكن قادرا على شراء الخشب الذي يدفئ بناره الحجرة الحقيرة التي كان يعيش فيها، فكان يعمد إلى دس يديه في جورب من الصوف كي يستدفئ ويقوى على وضع موسيقاه الإلهية التي جعلت اسمه في الخالدين!

وقد مات موزار بمرض السل وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، بعد أن تضاءلت حيويته بفعل البرد المستمر، والجوع، ونقص التغذية، وبلغت تكاليف جنازته الباعثة على الرثاء نحو ١٢ شلنا ونصف! ولم يشيع جنازته غير ستة أشخاص فقط ساروا وراء النعش الذي ثوى فيه، وحتى هؤلاء الستة اضطروا لأن يعودوا أدراجهم حين أخذ المطر ينهمر بشدة!

وعلى ذكر موزار والفاقة التي عاناها نوابغ الموسيقى، حدثني "هارولد ستانفورد" الذي كان الصديق الحميم لـ "فيكتور هربرت" بأن فيكتور عندما رحل إلى أمريكا للمرة الأولى، عانى من الفقر الأمرين، إلى درجة أنه لم يكن يملك أحيانا غير قميص واحد، فكان كلما اتسخ ذلك القميص "اليتيم" يضطر إلى النوم في الفراش ريثما تغسله زوجته وتكويه!

وأنا أذكر الاغنية التي كنا جميعا نرددها في باكورة أيام الحرب العالمية الأولى، وهي الأغنية التي مطلعها "إن الطريق طويل، طويل إلى تيباريري"، وقد كانت من أكثر الأغاني التي وضعت عن الحرب ذيوعا بين الناس، ومع ذلك فإن واضعها وهو "جاك جادج" كان يدير سوقا للسمك في النهار، ويعمل ممثلا في الليل، ليتمكن من أن يعيش! ومن

أشهر الأغاني التي لحنت في العصر الحديث أغنية "حبال من الفضة وسط الذهب"، وقد لحنها "هارت. ب. دانكس" كعربون للحب قدمه إلى زوجه، وباعها للناشر بثلاثة جنيهات فقط!.. ثم تشاجر بعدئذ مع زوجته وافترقا، حتى مات هو منذ حوالي خمسة وثلاثين عاما، فقيرا وحيدا، في منزل حقير، وعلى منضدة بجوار الفراش الذي مات عليه وجدت ورقة تحمل هذه الكلمات "ما أشق أن تتقدم في السن، وحيدا!"

كذلك من أشهر المقطوعات الموسيقية وأكثرها ذيوعا في العالم، مقطوعة كتبها ابن جزار – ومن دواعي الدهشة أنها لحنت بين حظائر الحيوانات في قرية "سبيلفيل" – وهذه المقطوعة تسمى "هيوموريسك".. وإنه ليندر أن تنقضي ساعة من ساعات النهار أو الليل دون أن تعزف هذه المقطوعة في مكان ما من العالم!

وواضع المقطوعة بوهيمي يدعى "أنطون دفوراك"، وقد رحل إلى أمريكا وهو في الخمسين من عمره، ولكنه لم يطق تحمل صخب نيويورك وضوضائها فعاش ردحا من الزمن في "سبيلفيل"، وهي قرية حقيرة ليس فيها أي مرفق من مرافق المواصلات ولا شارع واحد مرصوف، إلى يومنا هذا!

ومع ذلك فأثناء إقامته هناك كتب "دفوراك" جزءا من لحنه الذي أطلق عليه "سيمفونية العالم الجديد"، وهو يعتبر من أجمل وأمتع الالحان التي وضعها إنسان! ولما كان قد لحنه في حقول الحنطة في تلك القرية فقد فكر "دفوراك" وقتا ما في أن يسميه "سيمفونية سبيلفيل"

وقد ولد "دفوراك" لاثنين وتسعين عاما خلت في قرية صغيرة في بوهيميا النائية، وبعد أن نال قسطا ضئيلا جدا من التعليم كان عليه أن يعمل ساعات طويلة في محل جزارة والده. ولكن أثناء صنعه "السجق" كانت الألحان تتجاوب في خياله، وفيما هو يقطع شرائح الخنازير كانت الأغاني تتماوج في قلبه!.. وعليه فقد ترك محل الجزارة وذهب إلى (براغ) ليتعلم الموسيقى.. ولكن أين المال؟ لم يكن معه من النقود سوى بنسات قليلة كان يجمعها بين حين وآخر من العزف على الكمان في الشارع. وبلغت به الفاقة حدا اضطر معه إلى أن يقطن في حجرة فوق سطح أحد المنازل في حي من أفقر أحياء المدينة! ورغم ضآلة إيجار تلك الحجرة فإنه لم يستطع أن يستقل بها بمفرده، فشاركه في الإقامة فيها خمسة آخرون من الطلبة!

وكانت الغرفة شديدة البرودة في الشتاء. ومن فرط الجوع اعترى الهزال جسمه إذ كان يفوت عددا من وجبات الطعام ليوفر قيمة إيجار حطام بيانو قديم، بلغ منه التحطيم أن بعض مفاتيحه ما كانت تخرج صوتا على الإطلاق!

وإلى ذلك البيانو، وفي تلك الغرفة الباردة الكئيبة، جلس "دفوراك" فوضع كثيرا من الألحان الجميلة التي لم يستطع حتى مجرد تدوينها، لماذا؟ لأنه لم يكن يملك من النقود ما يشتري به الورق الذي يسجلها عليه، فكان يعمد أحيانا إلى التقاط الورق المهمل الملقى في الشارع فيدون عليه موسيقاه!

وبرغم ذلك فينبغي أن لا نبالغ في الشعور بالأسى على "دفوراك"، فإن فقره ساعد مساعدة فعالة على شحذ عقريته.. وإذا استمعت إلى مقطوعته المسماة "هيوموريسك"، فحاول أن تكتشف فيها ذلك الجمال الروحاني، والرقة، وشتى المشاعر التي سجلها رجل تألم وقاسى كثيرا، رجل كافح واحتمل البرد والجوع.. رجل ذاق مرارة الحياة وسبر أغوار اليأس!

تولستوي .. حياته أغرب من قصص ألف ليلة

ولد ليو تولستوي في مقاطعة تولا، الروسية في ٩ سبتمبر عام ١٨٢٨، وهو أصغر أخواته الأربعة الأولاد. في عام ١٨٣٠، توفيت والدة تولستوي، الأميرة فولكنسكايا، فشل تولستوي كطالب، حتى غادر تولستوي جامعة قازان في عام ١٨٤٧، بدون شهادة. وبدأ في ممارسة الكتابة. استمد لنفسه فلسفة خاصة كانت تقضي بأن لا يحاول أن يكون أحكم وأكبر مما تقتضي الحياة والطبيعة. وقد أجاد عرض أفكاره في رواية "الحرب والسلام" التي نشرت في سنة ١٨٦٦، سببت له فلسفته شقاقا بينه وبين أسرته. وهجر بيته في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٠ ثم مات بعد ١٠ أيام وهو يهيم على وجهه.

قصة تولستوي هي قصة حياة إنسان عظيم، وهي تكاد تفوق في غرابتها قصص ألف ليلة وليلة!.. إنها قصة "نبي" بشري مات في عصرنا الحاضر – سنة ١٩١٠ – وبلغ من توفير مواطنيه له أنه عاش العشرين عاما الأخيرة من حياته هدفا لسيل لا ينقطع من المعجبين الذين كانوا "يحجون" إلى بيته أملا في أن يتزودوا بنظرة عابرة إلى وجهه، ويسمعوا نبرات صوته، ويلمسوا أهداب ثوبه!

بل إن عددا من أصدقائه نزلوا في داره وعاشوا معه تحت سقف

واحد "أعواما" كاملة كي يسجلوا، بالاختزال، كل كلمة ينطق بها، في أي موضوع تافه أو حديث عابر.. ويصفوا بمنتهى الدقة أتفه تفصيلات حياته اليومية.. وقد جمعت هذه السجلات جميعها فيما بعد وطبعت في مجلدات ضخمة، صارت مرجعا هرما لكل مؤرخي حياة تولستوي..

ولعله لم يسبق في تاريخ البشرية – أو يلحق، حتى الآن – أن كتب عن إنسان من المؤلفات مثلما كتب عن تولستوي؛ فقد بلغ عدد الكتب التي وضعت عن حياته وآرائه ٢٣,٠٠٠ (ثلاثة وعشرين ألف كتاب) ! كتبت بجميع اللغات، هذا عدا ٥٦,٠٠٠ (ستة وخمسين ألف) مقال في الصحف والمجلات.. أما عدد مؤلفاته هو وقصصه، فقد ملأت ١٠٠ (مائة) مجلد!

وقصة حياة تولستوي حافلة بالصور والألوان الشائقة، مثل قصصه سواء بسواء، فقد ولد في قصر مكون من ٤٢ غرفة، تحوطه أسباب الترف البالغ والثراء العريض المأثورين عن الطبقة الأرستقراطية في روسيا القيصرية، لكنه في أواخر حياته تنازل عن جميع أملاكه وضياعه، ومتاعه الدنيوي، إيمانا بمثله العليا التي عاش ينادي بها، ثم مات لا يملك شروى نقير، في محطة سكة حديد صغيرة مقفرة، لا يحيط به غير عدد من الفلاحين!

وفي شبابه كان مزهوا بجاهه، يمشي متأنقا – وكأنه يتخطر – وينفق في حوانيت الخياطين في موسكو ثروات طائلة!.. لكنه في شيخوخته ارتدى الزي الخشن الذي يرتديه الفلاح الروسي، وصار يصنع أحذيته

بيديه، ويرتب فراشه ويكنس غرفته بنفسه، ويتناول طعامه البسيط – على مائدة عارية من الغطاء – من آنية خشبية، بملعقة خشبية!

وفي شبابه عاش تولستوي معيشة وصفها هو نفسه في "اعترافاته" بأنها "معيشة قذرة شريرة"! كان يشرب الخمر، ويقامر، ويبارز، ويزني، ويرتكب كل موبقة وجريمة.. حتى القتل! لكنه في مستقبل حياته حاول أن يتبع تعاليم "المسيح" بحذافيرها.. وبات أقرب شخصيات بلاده، بل أقرب البشر عموما إلى القداسة!

وفي السنوات الباكرة من حياته الزوجية نعم هو وزوجته بسعادة "مثالية"، حتى أنهما كانا يجثوان على ركبتيهما مبتهلين إلى المولى عز وجل، أن يديم لهما هذه الحياة المباركة وتلك السعادة العظمى، لكن تولستوي شقي فيما بعد مع زوجته شقاء مفجعا جعله لا يطيق رؤيتها!.. وحين رقد على فراش الموت كان رجاؤه الأول أن لا يؤذن لها بالدخول عليه!

وفي شبابه كان تولستوي تلميذا فاشلا، يئس مدرسوه الخصوصيون من أن يدخلوا إلى ذهنه الصفيق أية معلومات نافعة، لكنه بعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ كتب اثنتين من أعظم الروايات التي عرفها العالم والتي ستخلد على مر العصور: "أنا كارنينا" و"الحرب والسلام"

وتولستوي اليوم أكثر شهرة، في خارج روسيا، من جميع القياصرة الذين حكموا تلك الإمبراطورية الدموية.. ولكن ترى هل أسعده أنه كتب هاتين القصتين الخالدتين؟.. في البداية: نعم!.. أما فيما بعد، فقد خجل من كونه

كتبهما وكرس بقية حياته لكتابة نشرات صغيرة يعظ فيها بالسلام والمحبة ومحو الفقر.. وقد طبعت تلك النشرات طبعات رخيصة وصارت توزع على العربات من باب إلى باب، حتى نفد منها في أربع سنوات ١٢ مليون نسخة!

وقد كانت حياة تولستوي في مجموعها مأساة، وكان سبب مأساته، زواجه!.. فقد كانت زوجته تحب الترف، وهو يحتقره!.. هي تتحرق شوقا إلى المجد والنجاح الاجتماعي، وهو لا يبالي البتة بهذه التفاهات.. هي تسعى إلى المجد والقوة، وهو يعتبر اقتناء المال والممتلكات الخاصة خطيئة!.. وزاد الشقة بين الزوجين اتساعا، ما اتصفت به الزوجة من غيرة نارية مفترسة!.. غيرة دفعتها إلى أن تكره أصدقاءه، وتطرد ابنته- وابنتها في الوقت نفسه! - من البيت.. ثم تندفع إلى غرفة تولستوي فتطلق على صورة الابنة الموضوعة على منضدته طلقة من بندقية صيد!.. وعاشت الزوجة الحمقاء سنوات تثير أعصاب تولستوي بنكدها وصياحها وتأنيبها، حتى أحالت حياته جحيما، وكان أخص ما أحنقها عليه أنه أعطى الشعب الروسي مطلق الحرية في أن يطبع مؤلفاته بلا مقابل، ودون أن يحتفظ له بحق الملكية..

وفي إحدى مشادات الزوجة السليطة - إذ عارضها تولستوي في رأيها يوما - أصيبت بشبه نوبة "صرع" فارتمت على الأرض وفي يدها قارورة "أفيون" قربتها من شفتيها وهي تقسم أن تقتل نفسها.. أو تلقي بنفسها في البئر!

كان قد انقضى على زواجهما وقتئذ نصف قرن، وكانت الزوجة تركع أحيانا عند قدمي زوجها متوسلة إليه أن يعيد على مسامعها عبارات الحب القوية الملتهبة التي كتبها عنها في مفكرته قبل ثمان وأربعين سنة– عندما كانا يتبادلان حبهما "الجنوني" القديم! – فكان كلما قرأ لها ذكريات تلك الأيام السعيدة التي انقضت إلى غير رجعة، ينخرط كلاهما في البكاء بحرقة ومرارة!

لكن كأس تعاسته فاضت به آخر الأمر، ولم يعد يحتمل شقاءه البيتي المفجع أكثر مما احتمل، ففر من بيته ومن زوجته ليلة ٢١ اكتوبر سنة ١٩١٠ – وهو في الثانية والثمانين – في قلب الليل البارد المظلم، دون أن يدري إلى أين هو ذاهب!.. وأصيب من جراء ذلك بالتهاب رئوي حاد، قضى على حياته بعد أحد عشر يوما، فلفظ أنفاسه في "كشك" محطة سكة حديد صغيرة مقفرة، وليس حوله غير ابنته، وأصدقائه الفلاحين، ومصوري الصحف العالمية!

برنارد شو .. العزيمة تجعل المستحيل ممكناً

ولد برنارد شو في السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٨٥٦م، في مدينة دبلن، ثمّ انتقل إلى لندن عندما بلغ العشرين من عمره، وهومن أكبر مؤسّسي الحركة الاشتراكية الفابية، كما يُعتبر من أهمّ النقاد الموسيقيين والأدبيين، إذ حاز على جائزة نوبل للأدب في سنة ١٩٢٥م، ورفض استلامها، قائلا "إنّ هذا طوق نجاة يلقى به إلى رجل وصل فعلاً إلى برّ الأمان، ولم يعد عليه من خطر".

عاش برنارد شو حياة فقيرة وصعبة، فكان يكتب أن الفقر مصدراً للشرور والآثام، كما أنّه يؤدّي إلى الانحراف، والسرقة، والإدمان، وظهر ذلك من خلال مسرحيته باربرا، وكان محورها الرئيسيّ الفقر والرأسماليّة. وظل يكتب للمسرح لفترة ست وأربعين سنة، وقد بلغ عدد المسرحيات التي كتبها اثنين وخمسين مسرحية، وتوفي في يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٠.

وحياة برنارد شو مليئة بالمفارقات العجيبة الصارخة التي تلفت الأنظار؛ فمثلا كانت كل المدة التي قضاها بين جدران المدارس خمس سنوات، وبالرغم من النقص الملحوظ في تعليمه المدرسي فقد انعقد له لواء الزعامة للأدب وصار أشهر كتاب عصره، بل ومنح أعظم شرف يحلم به أي مؤلف في العالم وهو جائزة نوبل للآداب!.. وكانت الجائزة

تحمل له شيكا بمبلغ سبعة آلاف من الجنيهات، ومع ذلك فقد رفض الجائزة لأنه أصبح في غنى عما تمنح من مال وشرف، ولكنه رضي أخيرا– نزولا على رغبة الاتحاد الأنجلو سويدي للآداب – أن يقبل هذا المبلغ الضخم الذي لم يضعه في يده إلا لحظة خاطفة ثم سلمه هدية منه للاتحاد المذكور!

وينتمي والد برنارد شو إلى عائلة أيرلندية طيبة، ولكن أمه حرمت من ميراثها لأن عمتها الغنية لم تكن راضية عن زواجها منه! وساءت الأحوال المالية بالأسرة فاضطر جورج برنارد أن يكسب العيش بعرق جبينه وهو في الخامسة عشرة من عمره. وقد ظل يشغل طيلة العام الأول وظيفة كاتب بأجر يقل عن جنيه واحد في الشهر! ومن سن السادسة عشرة إلى العشرين اضطلع بمسئولية متجر كان يقوم بكل عمل فيه تقريبا مقابل خمسة وثلاثين شلنا في الأسبوع. لكنه كره الوظائف لأنه كان قد تربى في بيت تحرق فيه الشموع أمام محراب الفن والموسيقى والأدب. وفي صغره عندما بلغ من العمر سبع سنوات فقط كان يقرأ شكسبير، ويوحنا بنيان، وألف ليلة وليلة، والكتاب المقدس. وإذ وصل إلى الثانية عشرة كان متشبعا بكتابات بيرون.. ثم تعاقب على الخطوة بإعجابه في السنوات التالية كل من: ديكنز، وديماس، وشيلي. وفي سن الثامنة عشرة قرأ ستندال، وستوارت ميل، وهربرت سبنسر.. وكان لهؤلاء الكتاب الفطاحل فضل كبير في توسيع مداركه، وإطلاق العنان لخياله، وتعبئة

عقله بالمادة الفنية التي تنسج منها أحلام الشباب. ولذلك مرت به السنوات العجاف وهو مقيد بقيود الوظيفة في خدمة رئيس من رجال المال دون أن يجد لذة في عمله، لأن قلبه كان يحن إلى جنات الأدب والفن والعلم والدين.

وقبل أن يحتفل بعيد ميلاده العشرين حدث نفسه قائلا: "ليس لي إلا حياة واحدة لأحياهما ولن أضيعها في وظيفة كتابية". وهكذا ما أن حل عام ١٨٧٦ حتى أحرق كل الكباري التي تربطه بالوظيفة ثم رحل إلى لندن حيث كانت أمه تكسب عيشها من إعطاء دروس في الغناء، وهناك بدأ اشتغاله بالأدب، الذي قدر له أن يدر عليه ثروة طائلة ويجعل له اسما مدويا في مشارق الأرض ومغاربها، لكنه سار في طريق مملوء بأشواك الفشل مدة طويلة من الزمن، فظل يكتب تسع سنين كاملة وهو لا يلقى نجاحا ولا يفوز بطائل. وبالرغم من ذلك فقد صمم على أن يكرس كل وقته للكتابة. ومن العادات التي انتهجها دون أن يحيد عنها بعد ذلك قيد أنملة، أنه كان يكتب كل يوم خمس صفحات كاملة، سواء وجد في نفسه ميلا للكتابة أو لم يجد. ويقول برنارد شو في هذا الصدد: "كانت بقايا من صفات التلمذة والوظيفة لا تزال عالقة بي، حتى أني كنت إذا أنجزت الصفحات الخمس المقررة لليوم، أقف عند هذا الحد ولو لم أكمل جملة مفيدة يحسن السكوت عليها! خمس صفحات وكفى، لا أكثر ولا أقل"

وكتب في هذه الأثناء خمس روايات كبيرة – كان عنوان أحداها "الحب عند أهل الفن" – وبعث بنسخة من كل رواية من هذه الروايات الخمس إلى كل دار من دور النشر في إنجلترا وأمريكا.. لكن كل الروايات أعيدت إليه! وكان أكثر الناشرين عطفا عليه يقول له أنه يأمل أن يرى محاولته الثانية!

وظل الحال على هذا المنوال: يكتب كثيرا ولا تلقى كتبه إلا الرفض! ولم يكن هناك مطعن في أسلوبه الأدبي، ولكن المشكلة كانت في آرائه الجريئة. وبلغ به الضيق كل مبلغ حتى أنه كان يتعذر عليه أحيانا الحصول على طوابع البريد ليرسل بها كتابه إلى دار للنشر! وبلغ مجموع إيراده الذي جمعه من الكتابة خلال تلك السنوات التسع الأولى: ستة جنيهات فقط!

وعندما بليت ملابسه كان يسير في شوارع لندن وهو يبذل جهدا كبيرا في إخفاء الثقوب التي في نعل حذائه أو في سراويله!.. ولكنه لم يعرف مع ذلك ألم الجوع، والفضل في ذلك يعود إلى أمه التي كانت دائما تستدين من الخباز والبدال لتصد عنه غائلته.. وفي كل هذه السنوات التسع التي قضاها في الكتابة لم يكسب من قلمه إلا خمسة جنيهات أجرا لكتابة مقال عن الطب كلفه به أحد المحامين لسبب غير مفهوم!.. وفي مرة أخرى كسب جنيها واحدا لقيامه بفرز الأصوات في أيام الانتخابات!

كيف إذن كان شو ليهتدي إلى سبل العيش؟ إنه يقول بكل صراحة إن أسرته كانت في أشد حالات العوز لكنه لم يستطع أن يمد لها يدا، بل على النقيض من ذلك كانت عائلته تقدم له العون ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.. كما يعترف مضيفا إلى ذلك: "إنني لم ألق بنفسي إلى كفاح الحياة بل ألقيت بأمي إلى هذا الكفاح المرير!"

وأخيرا استطاع برنارد شو أن يقف على قدميه ويعول نفسه، لا من الكتابة والتأليف بل من النقد المسرحي. وكان أكبر نجاح مالي ظفر به من كتابة المسرحيات لا الروايات. وحتى المسرحيات لم يكن النجاح حليفه فيها في بادئ الأمر، فكل ما كتبه منها في البداية كان نصيبه الفشل.. والواقع أنه ظل يكتب طيلة إحدى وعشرين سنة، حتى استطاع أخيرا أن يجمع من المال ما يكفيه لنفقات زواجه من فتاة موسرة، دون أن يرى الناس في إقدامه على هذه الخطوة أية مجازفة!

ولا يكاد العقل يصدق أن برنارد شو الذي كان له وجه كالصوان يستطيع به أن يقف أمام الجموع الحافلة ليندد بقوانين الزواج، وينتقد النظم الدينية، ويسخر من الأوضاع الديموقراطية، والذي لم تسلم من لسانه كل التقاليد البشرية المرعية الجانب.. نقول أنه أمر لا يصدقه العقل أن هذا الخطيب الجريء كان يعاني كثيرا في صباه من خجل والحياء ومركب النقص! ولكن ذلك هو الواقع، فقد كان يقاسي الأمرين من خجله؛ فمثلا كان يذهب في شبابه لزيارة أصدقائه الساكنين على

ضفاف نهر التيمس بلندن. واسمعوا ما يقول شو نفسه وصفا لما كان يخالجه من مشاعر في مثل تلك الظروف:

"كنت أعاني عذابا نفسيا حادا بسبب الخجل، وكثيرا ما كنت أذرع شاطئ النهر جيئة وذهابا مدة عشرين دقيقة أو أكثر حتى أستجمع قوتي وأقدم على طرق باب الصديق! والحق يقال أنه كان من السهل علي أن أحجم عن مثل هذه الزيارات التي كانت تعذب نفسي عذابا أليما من مجرد التفكير في القيام بها، لولا أن هاتفا داخليا كان يدفعني إلى التغلب على هذا الجبن إن أردت أن أشق طريقي في الحياة، وأعتقد أن أقلية ضئيلة جدا من الناس تعاني مثل هذا الخجل الشديد الذي كنت أعانيه"..

وقد كان برنارد شو حريصا كل الحرص على سلوكه في المجتمع، فعكف على دراسة كل كتاب يبحث في أدب السلوك، لاسيما ما وجده من الكتب القيمة في هذا الموضوع في مكتبة المتحف البريطاني، وكان أكثر الكتب نفعا له كتاب عنوانه "آداب السلوك عند المجتمع الصالح" لكنه اهتدى أخيرا إلى أضمن وأفضل وأسرع وسيلة للتغلب على الخوف والجبن، حين التحق بجمعية للمناظرة وتعلم كيف يخطب في الاجتماعات العامة.

وفي المرات القليلة الأولى التي وقف فيها خطيبا كان يلعب بعقول سامعيه وينتزع المديح من أفواههم، حتى أنهم كانوا يختارونه رئيسا

للاجتماع القادم! ولكن بقايا الخجل لم تزل متشبثة به، فكان يوقع بامضائه على محاضر الجلسات بيد مرتعشة.. وإذا لم يضع مذكرات أمامه وهو يخطب لم يكن يعرف ماذا يقول. وإذا لم يضع مذكرات أمامه وهو يخطب لم يكن يعرف ماذا يقول. وإذا استعان بها لم يحسن قراءتها أمام الجمهور! وهكذا كان يطوي نفسه على ألم ممض والناس لا يلحظون ذلك عليه، بل يرهفون السمع لما يقول، كلما تلعثم! وكانت له إرادة من حديد هدفها سحق الخجل، ومن ثم عول على حضور كل اجتماع يطرح فيه موضوع ما على بساط البحث والمناقشة.. وكان دائما ينهض لإبداء رأيه. وذات مساء – وكان له من العمر ستة وعشرون عاما– استمع إلى المدعو هنري جورج مؤلف كتاب "التقدم والفقر" وهو يلقي محاضرة في الضريبة المباشرة.. فلم يكد يخرج من المكان حتى شرع في دراسة الاقتصاد السياسي، وأخذ يدعو بحرارة إلى وجوب تأميم الأراضي. وعندما عرض رأيه على قادة الرأي، نصحوه بالاطلاع على كتاب "رأس المال" لكارل ماركس، قائلين أنه ليس لأحد أن يجرؤ على التحدث في نظرية الضريبة المباشرة ما لم يدرس كتاب ماركس في رأس المال إلى جانب كتاب هنري جورج في التقدم والفقر. وقرأ شو كتاب ماركس الذي أحدث هزة عنيفة في التاريخ – الكتاب الذي حرك الشعب الروسي نحو الثورة! – ويعترف شو بتأثير هذا الكتاب على حياته فيقول:

"إن كتاب (رأس المال) كان نقطة التحول في حياتي. ولئن كنت قد

اكتشفت فيما بعد أن آراءه الاقتصادية يعتروها الخطأ، إلا أنه أضاء السبيل لي، ومزق الحجب، وفتح عيني على حقائق التاريخ، وأعطاني إدراكا جديدا لتفهم الحضارة الإنسانية، وخلق لي غرضا ورسالة في الحياة.. وصفوة القول أنه صنع مني إنسانا!"

أجل! لقد بات صدر برنارد شو – بفضل هذا الكتاب – يشتعل بالنار، نار العقيدة القوية الراسخة.. ولكن أين الخجل؟ لقد ذهب إلى غير رجعة.. لقد وجد شو كتابا ملأه بغيرة المجاهد في حرب مقدسة، وجعله ينسى كل شئ عن نفسه! صار لا يعبأ بشيء إلا بالقضية التي ينافح عنها. وظل اثنى عشر عاما يقف في نواصي الشوارع، أو في الاجتماعات العامة، وحتى في الكنائس، في طول البلاد وعرضها، يدعو الناس إلى اعتناق الاشتراكية!.. وكان يلاقي الشيء الكثير من الأذى والاضطهاد من غير المؤمنين بدعوته، ولا يبالي مع ذلك إلا بأن يقرع الحجة بالحجة، سعيا إلى نشر الدعوة ونجاحها.. وهكذا صار بمرور الأيام من أقدر الخطباء في عصره، وصارت تصله الدعوات المتلاحقة للخطابة، فيتهافت الناس على سماعه.. بل إن الأثرياء والرأسماليين كانوا يسبقون طبقة العمال والكادحين إلى قاعة الاجتماع! واستغل أصحاب الصالات الكبيرة مقدرته الخطابية، كي يجمعوا المال.. مع أنه لم يقبل أجرا على محاضراته، وإنما كان يجمع تبرعات من الحاضرين لنشر الدعوة التي آمن بها..

وفي خلال عام ١٨٩٦ التقى بفتاة تدعى "شارلوت بين تاونشند"، وكان هو في الأربعين وهي عانس في التاسعة والثلاثين من عمرها، ووارثة لعقارات تدر عليها إيرادا ثابتا. وأخذت الأيام تبتسم له بعد تجهم فأصاب نجاحا عظيما، إذ بلغت أرباحه في عام واحد في مسرحية واحدة كانت تمثل في أمريكا عشرين ألفا من الجنيهات! وكانت العانس المذكورة قد سئمت حياة الترف وانضمت إلى جماعة "الفابيان" ذات الأغراض الإنسانية النبيلة. وكان شو وقتئذ أكبر داعية للجماعة، فأعجبت به شارلوت.. ونما الإعجاب إلى حب، لم تملك إلا أن يصارحه به.. وكانت في حبها له تبصره بعيوبه! ويقول له أحيانا إنه أكبر محب لذاته رأته عيناها!

ومضى عامان وهو لا يحلم بالزواج منها، وفي شهر مارس عام ١٨٩٨ رحلت إلى مدينة روما لتدرس نظم البلديات المتبعة هناك. وما أن وصلت إلى روما حتى تلقت برقية نسيتها بأن برنارد مريض جدا، وقد برحت به العلة وبلغت حتى الخطورة على حياته، فعادت في الحال إلى لندن حيث وجدت "شو" قد أصيب بانهيار في صحته بسبب الإرهاق في العمل. وأشفقت عليه حين رأت الحجرة الضيقة التي كان يقطنها – وقد صرح شو يومئذ بأن حجرته لا يقوى على تنظيفها غير الديناميت! أو على حد تعبيره: "لو أن سبع فتيات وفي أيديهن سبع مكانس قمن بتنظيف هذا الكهف الذي أسكن فيه، ومضين في عملية الكنس والتنظيف مدة نصف قرن، لما كان لعملهن أي أثر!"

وألحت عليه هذه الفتاة الغنية ذات العينين الخضراوين في أن تنقله من مسكنه إلى بيتها الريفي الجميل، لكي تقوم على العناية به. وأمام الحاحها لم يكن في وسعه إلا أن يرسلها لتشتري خاتما ووثيقة زواج!.. ويقول "شو" في ذلك: "تزوجتها تحقيقا لغرض كنت من قبل أحسبه بعيد المنال، وهو أن أجد شخصا أفكر فيه أكثر من تفكيري في نفسي!"

وعاشا معا يرفرف عليهما علم السعادة الزوجية طوال خمسة وأربعين عاما، إلى أن توفيت زوجته في الثاني عشر من شهر فبراير عام ١٩٤٣ وقد ظن الناس أنه يكبرها بعشرين سنة ولذلك كانوا يتوقعون أن يرحل قبلها إلى العالم الآخر، ولكن الفرق الحقيقي بين عمريهما كان أربعة شهور فقط!

ومع أن برنارد شو ولد في عام ١٧٥٦ فإنه كان يقول أنه جد منشغل بالحياة بحيث لا يجد متسعا من الوقت للتفكير في الموت! وقد عمر طويلا فمات في عام ١٩٥٠ وله من العمر أربعة وتسعون عاما. مات وإن عاش اسمه بين الخالدين.. ومن أقواله المأثورة في هذا الصدد: "إني أحب الحياة للحياة نفسها.. وليست الحياة عندي شمعة قصيرة الأجل، بل هي شعلة متوهجة، أمسك بها ما دمت حيا، ثم أسلمها للأجيال المقبلة على ما هي عليه من التوهج والتألق"

روكفيللر.. في حياته ثلاث عجائب خارقة

"جون دافيدسون روكفللر"، رجل المال والأعمال الأمريكي الشهير، ولد في ٨ يوليو سنة **١٨٣٩** جمع ثروته الهائلة من استخراج البترول، والتعدين، وصناعة الفولاذ، وغيرها من الصناعات. وكان أول ملياردير تعرفه أمريكا، وكان من أقصى أمانيه أن يعيش حتى يبلغ المائة، ولكن تصلب شرايين قلبه أدى إلى وفاته في **٢٣** مايو سنة **١٩٣٧** وكان في الثامنة والتسعين!

في حياة "جون د. روكفللر" ثلاث عجائب خارقة: أولها أنه جمع من المال ما لعله يعد أضخم ثروة في تاريخ الإنسانية! وقد بدأ حياته العملية بفلاحة الأرض وزراعة البطاطس تحت وهج الشمس المحرقة، مقابل بنسين (٨ مليمات) في الساعة!.. وفي تلك الأيام لم يكن في الولايات المتحدة بأسرها نصف "دستة" من الرجال الذين يملك الواحد منهم مائتي ألف جنيها!.. لكن روكفللر برغم هذا جمع من الثروة ما قدر بين العشرين والأربعين مليونا من الجنيهات! ومع ذلك فإن أول فتاة أحبها رفضت الزواج منه. ولماذا؟ لأن أمها أبت الموافقة على تزويجها من رجل مثل جون روكفللر، لا يملك أية مؤهلات تبشر بمستقبل مرموق!

والعجيبة الثانية في حياة روكفللر أنه تبرع بمبالغ من المال تفوق ما تبرع به أي إنسان في التاريخ!.. فقد بلغ مجموع تبرعاته مائة وخمسين مليون جنيها، وهذا يعني أنه تبرع بأكثر من ثلاثة شلنات مقابل كل دقيقة مرت منذ مولد المسيح (أي منذ **١٩٥٤** سنة).. أو ما يوازي مائة وخمسين جنيها مقابل كل يوم أشرقت شمسه منذ قاد موسى بني إسرائيل عبر البحر الأحمر (أي منذ **٣٥٠٠** سنة)!

وثالثة العجائب أن روكفللر عاش حتى سن السابعة والتسعين، برغم أنه تلقى آلاف الخطابات التي يهدده كاتبوها بالقتل.. (فقد كان من أكثر الرجال المكروهين في أمريكا!) وقد اقتضى ذلك تعيين حراس مسلحين لحراسته طيلة الليل والنهار!.. كما أن روكفللر احتمل الارهاق العصبي والجسماني المروع الذي اقترن به تأسيس وإدارة مشروعاته الضخمة العديدة، وهو الارهاق الذي قتل ثلاثة من أصحاب الملايين وكبار رجال الأعمال الأمريكيين (هم: هاريمان ملك السكك الحديدية.. ثم وولورث ملك متاجر ألف صنف.. وباك ديوك ملك التبغ) في سن ٦١، ٦٧، ٦٨، على التوالي!.. لكن روكفللر جمع أكثر من ثروات هؤلاء الثلاثة مجتمعة، ومع ذلك فقد عاش إلى سن ٩٧!.. ولو علمت أنه لا يبلغ هذه السن غير ثلاثين رجلا من كل مليون، ولا يبلغها مستمتعا بجميع أسنانه الطبيعية سليمة – مثل روكفللر – غير واحد بين كل مائة مليون شخص.. لاعتبرت تعمره واحتفاظه بصحته إلى هذه السن أعجوبة الأعاجيب.

فماذا إذن كان سر طول العمر روكفللر؟ لعله قد ورث "الاستعداد" لطول العمر من والديه وأجداده.. لكن الذي نمى من هذا "الاستعداد" طبيعة الرجل الهادئة التي كانت تحميه دائما من الانفعال والعجلة، ثم حرصه على أخذ قسط صاف من النوم أثناء النهار، من قبيل ذلك أنه حين كان يرأس شركة ستاندار للبترول، كان يحتفظ في غرفة مكتبه بكنبة عريضة يخلد عليها للنعاس لمدة نصف ساعة عند ظهر كل يوم. وقد استمر على هذه العادة حتى نهاية حياته.

وقد أصيب روكفللر في سن الخامسة والخمسين بانهيار في صحته، فكان ذلك من أسعد الأحداث في تاريخ الطب عامة، فبسبب ذلك الانهيار صار الرجل ينفق الملايين من الجنيهات على البحوث الطبية. ولا تزال "مؤسسة روكفللر" تنفق في هذا الباب مليونين ونصف مليون من الدولارات كل عام!.. وحين تفشى وباء الكوليرا الرهيب في الصين سنة ١٩٣٢، كانت كلية الطب التي أنشأتها تلك المؤسسة في "بيكين" من أعظم الهيئات التي تولت مكافحة الوباء، برغم عوائق الفقر والجهل السائدين هناك. ومن ناحية أخرى، كان أطباء المؤسسة هم الذين اكتشفوا مصل الحمى الصفراء اللعينة، وهم الذين شنوا الحملات الظافرة في كل بقاع الأرض ضد حمى الملاريا بدورها.

وقد ربح جون روكفللر أول "شلن" في حياته من مساعدته لأمه في تربية الدواجن (الديكة)!.. وقد ظل حتى آخر حياته يحتفظ بقطيع من

الديكة الأصيلة في ضيعته البالغة مساحتها ثمانية آلاف فدان. احتفظ بها لتذكره بصور طفولته الغابرة!.. وقد كان يدخر كل فلس تعطيه إياه أمه، مقابل تعهد دواجنها، في فنجان شاي مكسور يحتفظ به فوق رف المدفأة!

ثم عمل في مزرعة بأجر قدره شلن ونصف في اليوم، فكان يدخر كل أجره حتى جمع مبلغ عشرة جنيهات، أقرضه يومئذ لمخدومه بفائدة قدرها ٧ في المائة. وإذ ذاك اكتشف أن جنيهاته العشرة تدر عليه في العام ما يوازي أجره عن عمله الشاق لمدة عشرة أيام!.. فقال "ومنذ اكتشفت هذه الحقيقة، اعتزمت أن أجعل المال عبدا لي، لا أن أكون عبدا له!"

وروكفللر لم يدلل ابنه ويفسده بإغداق المال عليه، بل كان لا يعطيه منه إلا بمقدار حاجته، على أن يؤدي في مقابل ذلك عملا نافعا. ومن ذلك أنه جعل له نصف بنس (مليمين) عن كل ثغرة في سياج الضيعة يكتشف حاجتها للإصلاح!.. فلما اكتشف الابن من هذه الثغرات ثلاث عشرة في يوم واحد، دفع له أبوه عنها ستة بنسات ونصف. ثم صار يدفع له سبعة بنسات ونصف عن كل ساعة يقضيها في إصلاح تلك الثغرات.. كما اعتادت أمه أن تدفع له بنسين ونصف عن كل ساعة يتمرن فيها على عزف الكمان.!

ولم يدرس روكفللر يوما في جامعة، وإنما التحق عقب دراسته "الثانوية" بمدرسة للتجارة لبضعة أشهر.. ثم زهد في الدراسات العلمية وهو في سن ١٦ ومع ذلك فقد تبرع لجامعة شيكاغو بهبة قدرها عشرة ملايين جنيه!

وكان روكفللر على الدوام مواظبا على الذهاب إلى الكنيسة، وفي شبابه كان يتولى تدريس الدين في اجتماعات مدارس الأحد. وكان متدينا، مستقيمًا لم يرقص قط، ولا لعب القمار، ولا دخل مسرحا، ولا دخن سيجارة، أو شرب كأسا من الخمر!.. وكان يصلي قبل تناول كل وجبة طعام، ويقرأ في الإنجيل وكتب الصلوات كل يوم..

وثروة روكفللر لا تزال تنمو بمعدل عشرين جنيها كل دقيقة! وقد كانت كل أمنية الرجل أن يعيش حتى يبلغ المائة كي يتم قرنا كاملا.. وصرح بأنه لو قدر له أن يحتفل بعيد مولده المئوي (الذي كان موعده يوم ٨ يوليو سنة ١٩٣٩) فسوف يقيم الاحتفال المذكور في الدار التي أنشأها بضيعته، وسوف يقود بنفسه جوقة الموسيقى لتعزف لحنه المفضل: "عندما كنا، أنت وأنا في شبابنا يا (ماجي)!"

سومرست موم .. كاتب من نوابغ عصره

"وليم سومرست موم"، هو الروائي الإنجليزي الذي ولد في باريس في ٢٥ يناير سنة ١٨٧٤، حيث كان والده مستشارا قانونيا للسفارة البريطانية، ماتت أمه وهو في الثامنة، ولحق بها الأب بعد أقل من عام، فعاد إلى إنجلترا ليرعاه أهله، درس الطب وتخرج في سنة ١٨٩٢ ثم عمل في مستشفى سانت توماس، ولكن هوايته الأدبية غلبت عليه، فانصرف إلى كتابة القصص، اضطر للإقامة بسويسرا خلال الحرب العالمية الأولى لإصابته بالسل، وهناك عمل مع المخابرات السرية البريطانية. وأصيب بانهيار عصبي بعد الحرب الأولى، فاضطر للقيام بجولة في بحار الجنوب. في عيد ميلاده التسعين قرر أن يعتزل الكتابة ٢٤ يناير ١٩٦٤ وقال يومها: (لقد جف قلمي وسأكتفي بالقراءة). واستمر قارئا فقط حتى توفي يوم ١٦ ديسمبر ١٩٦٥.

ما هي، في اعتقادك، أعظم مسرحية كتبت حتى يومنا هذا؟.. عندما أخذت أصوات أبرز النقاد المسرحيين في نيويورك، لاختيار أعظم عشر مسرحيات ظهرت في جميع العصور، نالت "هملت" التي مضى على كتابتها ما يربو على ثلاثمائة سنة، المكان الأول في القائمة.. أما الرواية الثانية في الترتيب، فلم تكن "ماكبث" أو "الملك لير" أو "تاجر البندقية"، بل كانت "الأمطار"!

نعم "الأمطار"، تلم الدراما العنيفة التي تدور حول صراع غريزة الجنس مع الدين، وعراكهما بالسن والناب في البحار الجنوبية.. وقد اقتبست عن قصة قصيرة لسومرست موم! وقد ربح موم من هذه المسرحية أربعين ألف جنيها، ومع ذلك فانه لم يستغرق في كتابتها دقيقة واحدة!

وإليك القصة – أو بالأحرى قصة القصة: كان موم قد كتب قصيرة أطلق عليها "سادي تومسون"، ثم لم يعد يفكر فيها بعد ذلك، وذات ليلة كان أحد كتاب المسرح – ويدعى جون كولتون – يبيت في ضيافته، فطلب شيئا يقرأه ليستعين به على النوم، وإذ ذاك أعطاه موم مسودة قصة "سادي تومسون"!

وافتتن كولتون بهذه القصة التي هزت مشاعره، فنهض من الفراش وأخذ يذرع أرض الغرفة، وهو يتصور القصة بخياله وقد وضعت في قالب مسرحي، فصارت دراما تستحق الخلود!

وما كاد ينبلج وجه الصبح، حتى هرع كولتون إلى موم صائحا به: "إن القصة التي أعطيتني إياها لتعينني على النعاس، قد أطارت النوم من جفني. لقد قضيت الليلة بأكملها أفكر في صلاحيتها لأن تقتبس مسرحية هائلة!" لكن موم قابل الفكرة بفتور، إذ لم تحرك له ساكنا، وقال ساخرا: "مسرحية؟! أي نعم، لعلها تصلح لأن تكون تمثيلية سقيمة، وقد يستمر عرضها – إذا قدر بها النجاح – ستة أسابيع على الأكثر، ولكنها، والحق يقال، لا تستحق عناء الاهتمام بها!"

لكن ذلك لم يثبط من همة كولنجتون، بل واصل جهوده حتى أتم إعداد القصة للمسرح وسماها "الأمطار"، ثم عرضها على المخرجين، فرفضوها جميعا، جازمين بفشلها!.. وأخيرا قبلها كي يسند بطولتها لممثلة ناشئة تدعى "جين إيجل"!.. لكن ممول المسرح عارض في ذلك طالبا إسناد الدور إلى ممثلة مشهورة!

وأخيرا فازت جان إيجل بالدور، ومثلت شخصية "سادي تومسون" بقوة وحرارة عاطفية جعلتها أعجوبة الوسط المسرحي في برودواي!.. واستمرت الرواية تمثل فيمتلئ المسرح بأكمله بالمنظارة طيلة أربعمائة وخمس عشرة ليلة متوالية! وفي كل عرض تزداد الجموع المتزاحمة التهابا وحماسة!.. لقد كتب سومرست موم كتبا عديدة ممتازة منها: "أغلال الحب"، و"القمر وستة بنسات"، و"القناع الملون" عدا طائفة من المسرحيات الناجحة يربو عددها على العشرين دراما، لكنه لم يكتب التمثيلية التي فاقت شهرتها جميع تمثيلياته!

ويعد سومرست موم الآن من نوابغ عصره، ومع ذلك فقد لا يعلم الكثيرون أن الفشل المالي ظل يلازمه طيلة الإحدى عشرة سنة الأولى من احترافه الكتابة! ومن العجيب أن هذا الرجل الذي قدر له أن يربح من مؤلفاته ٢٠٠ ألفا من الجنيهات، لم يزد ربحه خلال الإحدى عشرة سنة الأولى – من قصصه القصيرة والطويلة – على مائة جنيه سنويا، بل اضطرته أن يبيت أحيانا على الطوى! ولطالما حاول أن يجد عملا كمحرر

للمقالات الافتتاحية في إحدى الصحف، بمرتب ثابت، ولكنه لم يوفق إلى ذلك، وقد صارحني مرة بقوله: "لقد اضطررت إلى مواصلة الكتابة بعدم استطاعتي الحصول على عمل!".

ولامه أصدقاؤه على حماقته التي تجعله يحترف الكتابة رغم فشله المتكرر، ولما كان حديث عهد بالتخرج من كلية الطب، فقد نصحوه بهجر القلم وترك القصص الخيالية جانبا ليمارس مهنة المبضع، لكن جهودهم فشلت في أن تنال من عزيمته الماضية وتصميمه على تخليد اسمه بحروف ضخمة بارزة في تاريخ الأدب الإنجليزي!

ولقد حدثني بوب ريلي، محرر باب "صدق أو لا تصدق" المشهور قائلا: "قد يعمل الإنسان ويظل يكدح عشر سنوات وهو نكرة مهمل حامل الذكر، ثم يلمع نجمة فجأة في عشر دقائق!"

وهذا القول يصدق كل الصدوق على سومرست موم، فقد واتاه الحظ آخر الامر من حيث لا يدري. وإليك كيف واتاه بفرصته الأولى:

فشلت تمثيلية أحدهم فشلا ذريعا على أحد مسارح لندن، فراح صاحب المسرح يبحث في عجلة عن مسرحية يعرضها مؤقتا، ريثما يعد المسرحية التالية على مهل.. ولم يكن يطمع في تحفة رائعة، بل كان أقصى ما يؤمل فيه أن يجد أية رواية متوسطة الجودة يقدمها لرواد مسرحه، وفيما هو يعبث بمحتويات أدراج مكتبه ويستعرض الروايات المهملة التي تزخر بها، وقعت في يده رواية لسومرست موم عنوانها

"ليدي فردريك"، كان قد مضى على وجودها في الدرج عام كامل. ومع أنه كان قد قرأها من قبل ولم ترق في عينيه، لكنه رآها في هذه المرة تصلح لأن تمثل بصفة مؤقتة ليسد بها الفراغ الشاغر لبضعة أسابيع! وأخرجها بالفعل، وهنا حدثت المعجزة! فقد ظفرت "ليدي فردريك" بنجاح هائل، وباتت حديث أهل لندن جميعا. بل أنها سحرت لب أهل إنجلترا حيث أثارت من تعليقات المعجبين ما لم تثره مسرحية أخرى منذ عهد روايات أوسكار وايلد ذات الحوار الخلاب!

وللحال تهافت مدير والمسارح جميعا في لندن على سومرست موم يلتمسون رواياته، فصار صاحبنا ينبش مخطوطاته القديمة وأوراقه المهملة حتى أخرج ثلاث مسرحيات مثلث على ثلاثة مسارح مختلفة في آن واحد، واكتظت المقاعد عن آخرها بالنظارة، بل توافد أفراد الاسرة المالكة في فيض لا ينقطع، كما تهافت الناشرون يتزاحمون على طبع مؤلفات هذا النابغة الفذ. وهبط الحظ على العبقري الذي كان مغمورا، وسلطت عليه الأضواء فجأة، فبات موضع حديث الناس جميعا، وانهالت عليه رقاع الدعوى من أرفع طبقات المجتمع. وهكذا بعد أحد عشر عاما قضاها سومرست موم في زاوية النسيان، وجد نفسه فجأة موضع التنافس وقبلة الأنظار في صالونات "ماي فير" الراقية، التي تهافت روادها على شرب نخبه!

وموم – كما صرح لي – لا يكتب حرفا بعد الساعة الواحدة ظهرا، إذ أن قريحته يسودها الخمول بعد الظهيرة.. ومكانه المفضل للكتابة

"سقيفة" مظللة، أشبه بمظلات الكروم، أقامها على سطح الفيلا التي يقطنها في ساحل الرفييرا، وقد شيدها على الطراز المراكشي، ومن عادة موم دائما أن يدخن غليونه ويقرأ الفلسفة لمدة ساعة قبل أن يشرع في الكتابة، ومنذ فراره من الغزو الألماني الذي اجتاح فرنسا، انتقل موم إلى مزرعة بولاية "كارولينا الجنوبية" الولايات المتحدة، حيث أقام مواصلا مجهوده الأدبي طوال سنوات الحرب...

ورغم زعمه أنه لا يؤمن بالخرافات، فقد أفضى إلي بأنه يضع شعار "عين الحسود" على جميع مؤلفاته. بل يحتفظ به على اللوحة التي تحمل اسم العائلة، وعلى أطباق مائدته، وأدوات مكتبه، وأوراق اللعب التي يستعملها (الكوتشينة).. كما أنه حفر العلامة ذاتها على رف مدفأته.. بل وعلى مدخل داره لكنني كلما سألته عما إذا كان يؤمن حقيقة بصحة هذه المعتقدات، ابتسم ولم يجب!

ايزنهاور.. القرار الخطير يتم في هدوء

اسمه بالكامل "دوايت دافيد آيزنهاور"، ولد في دنيسون – بولاية تكساس – في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٩٠، لأسرة ذات أصول هولندية، تخرج في الكلية العسكرية الأمريكية بـ "ويست بوينت" في سنة ١٩١٥ بتفوق، وعين في أحد معسكرات التدريب في الحرب العالمية الأولى.

عين رئيس أركان حرب الجنرال ماك أرثر في واشنطن في سنة بعد خمسة أيام من وقوع حادث بيرل هاربور – الذي كان بداية الحرب بين اليابان وأمريكا، وبداية دخول أمريكا الحرب العالمية الثانية تم تعيينه رئسيا لإدارة العمليات الحربية الأمريكية.. وفي يونيو سنة ١٩٤٢ عين قائدا للقوات الأمريكية جميعا في الجبهة الأوربية. وفي ١١ فبراير سنة ١٩٤٣ عين قائدا أعلى لقوات الحلفاء في شمال إفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط فقاد الحلفاء إلى النصر، ثم عين قائدا للحلفاء في أوربا الغربية فحرر فرنسا وقاد القوات الغربية لغزو ألمانيا، في سنة ١٩٤٨ اعتزل الخدمة العسكرية ليرأس جامعة كولومبيا. وفي سنة ١٩٥٣ فاز برئاسة الجمهورية الأمريكية ليصبح الرئيس الرابع والثلاثين، وتوفي في توفي ٢٨ مارس ١٩٦٩.

في مطلع هذا القرن العشرين، كان طالب ثانوي يتردد على مكاتب

مجلة أسبوعية في مدينة (كانساس) اسمها "أبيلين نيوز" فاستعار ما من رئيس التحرير كتابا يضم بين دفتيه سيرة رجل من أعظم رجال الحروب في كل الأجيال، هو "هانيبال"، وانكب الغلام على قراءة سيرة ذلك البطل المغوار الذي استطاع أن يعبر جبال الألب على ظهور الفيلة، وظل يحارب إيطاليا مدة خمسة عشر عاما دون أن تفتر له عزيمة! وخرج الغلام من مطالعة سيرة هانيبال وقد تملكه شغف شديد بقراءة تاريخ الحروب، فلم يلبث أن قرأ كتاب "انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" لجيبون، ثم قضى شهورا طوالا ينقب في كتب التاريخ الأمريكي ويقرأ تراجم مشاهير الأبطال، أمثال "لي" و"جرانت" و"واشنطون".. الخ – واشتد به الشغف بمطالعة كتب التاريخ، ولا سيما تاريخ الحروب، إلى درجة أن تنبأ له الكتاب السنوي الذي تصدره مدرسته في ختام العام المدرسي بأن "هذا الغلام سيكون أستاذا للتاريخ في جامعة ييل!".. لكن النبوءة انحرفت قليلا عن هدفها، فلم يعلم صاحبنا التاريخ في جامعة ييل، وإنما صنع التاريخ الذي يضطلع آخرون بتعليمه في جامعة ييل نفسها! وفي أعناقنا أمانة تقتضينا أن نعترف بأن التاريخ الذي صنعه، أعطر ذكرا وأبقى أثرا مما صنع هانيبال وما معه من قطعان الفيلة!

والغلام الذي نعنيه هو "دوايت دافيد أيزنهاور" – أو "أيك" كما يطيب لأصدقائه أن يدعوه!

نعم، فإن هذا الشاب المحب للسلام، ربيب حقول القمح بولاية

كنساس، كانت الأقدار تدخره كي يقود الجيوش التي قررت مصير ثلاثمائة مليون نفس في أوروبا الغربية!

كانت الساعة الرابعة من صباح اليوم الخامس من شهر يونيو سنة ١٩٤٤ حين قرر الجنرال أيزنهاور غزو أوروبا في اليوم التالي! وقد اتخذ هذا القرار في بيت ريفي جميل ببلاد الإنجليز والبرية وخبراء الأرصاد! وقبل ذلك التاريخ بيومين كان الطقس تغير فاضطر إلى إلغاء ذلك القرار. ولكن ما أن بدت بوادر التحسن حتى أصدر قراره الخطير، فقد خشي أن يضعف أي تأجيل آخر الروح المعنوية العالية في الجيوش التي كانت على تمام الأهبة والتحفز!

وبعد أن درس أيزنهاور – كعادته كل الحقائق، ووازن بينها، قال: "أمام هذه العوامل لا يسعنا إلا أن نسير لتنفيذ خطتنا"، وبهذه العبارة الهادئة التي نطق بها بلا زهو أو خيلاء، سير أعظم حملة برمائية عرفها تاريخ والحروب الطويل المخضب بالدماء!.. ومن كان يظن أن أيك أيزنهاور الذي اعتاد أن يغسل الأطباق ويحلب الأبقار، وهو فتى يافع في كنساس، يستطيع أن يترك في تاريخ البشرية أثرا قويا ثم يكون في ميسور رجل واحد أن يقوم به في كل عصور التاريخ؟!.. لقد ألقى على كاهله أن يكون الرئيس الأعلى لكل قوات الجبهة الغربية المتحدة، بما فيها المشاة، والمدفعية، وسلاح المهندسين، والبحرية، وقاذفات القنابل التي تزأر فوق رؤوسهم!

وبهذه الأوضاع كان عليه أن يقود جيشا هو أعظم بكثير من جيوش نابليون ويوليوس قيصر وهانيبال وشارلمان مجتمعة معا! كما كان مسئولا في الوقت نفسه عن قيادة أسطول هو أضخم من كل أساطيل نلسون وهو كنز ودريك وجون بول والأميرال ديوي متحدة معا! وفوق هذا وذلك وضعت على عاتقه قيادة أكبر قوة جوية يحتم بها قائد، وتسلم أيزنهاور مقاليد هذه المسئوليات الجسام جميعا بهدوء الواثق المطمئن!.. وذلك بفضل سنين التدريب الطويلة التي سبقتها.. ثم بفضل الاستعداد الكامل الشامل الذي حسب فيه حساب كافة التفصيلات، والإحاطة التي تعوق التصور بكل فنون الحرب ومعدات القتال.

ويلتزم أيزنهار شعارا للنجاح الحربي غاية في البساطة، وهو: "لتكن خطتك مفصلة أدق تفصيل، وبعدئذ لتضرب ضربة حاسمة، كالموت نفسه!".. وقد اختار مستشاريه أيضا من طرازه، لا تفوتهم في رسم خططهم شاردة ولا واردة.. فمثلا احتاج الأمر في معركة غزو أوروبا إلى شرح الدور الذي تقوم به البحرية في عملية الغزو، في نحو ٨٠٠ صفحة كبرى مكتوبة على الآلة الكاتبة! ووزنت المجموعة الكاملة لأوامر البحرية مع الخرائط اللازمة للغزو فبلغت ٣٠٠ رطلا! على أن المحارب الجبار الذي كسر شوكة هتلر في معركة أوربا، كان في شبابه أيضا – منذ ٢٨ سنة – لاعبا جبارا لكرة القدم، يمزق شمل الملعب كما تمزق الاعاصير كل شيء في طريقها، حتى لقبوه بـ "إعصار كنساس"! وخلدوا

اسمه في هذا المضمار بنفسه على لوحة من البرونز في الكلية الحربية المشهورة "وست بوينت" لكن إصابته بكسر في ركبته أثناء اللعب ذات يوم، قضى عليه بتطليق ذلك الميدان من ميادين تفوقه إلى غير رجعة!

وعندما فكر الحلفاء في اختيار الرئيس الأعلى للقوات المحاربة، كان أيزنهاور الشخص الوحيد الذي اتفقت عليه الآراء بالإجماع! فهو لم يظفر بموافقة روزفلت وتشرشل فحسب، بل وأيد ستالين نفسه فكرة تعيينه. وكان أيزنهاور يزين مكتبه في لندن بخطاب شخصي من روزفلت إلى ستالين يؤكد فيه أن أيزنهاور هو الذي وقع عليه الاختيار لقيادة القوات الأمريكية لغزو أوروبا.

ومع هذه الثقة الغالية التي أولاه إياها "الثلاثة الكبار"، فإنه حينما عزم على الالتحاق بالكلية الحربية فزعت أسرته لهذا النبأ! فقد كانت تنتمي إلى مذهب ديني يعارض الحروب، وقد تأصل فيها هذا الاعتقاد من أجيال سحيقة في القدم. وهذا المذهب الديني الذي أهله ينتسبون إليه هو "أخوة المسيح المتحدون".. وقد كان جد أيزنهاور قسيسا لهذه الكنيسة يلقي مواعظه فيها باللغة الألمانية. وأما أبوه وأمه فقد التقيا لأول مرة وهما يتلقيان العلم في كلية صغيرة تديرها تلك الجماعة، ولذلك يمكنك تصور مقدار الاستياء الذي عم أفراد الاسرة حينما علموا أن أيزنهاور يبغي أن يكون جنديا!.. لكن أيزنهاور صمم على المضي في طريقه، ولم تستطع توسلات أبويه أن تثنيه عما عقد العزم عليه! وقد أراد في بادئ الامر أن

يصير ضابطا بحريا، مثل صديق صباه "اثيريت هازلت" وكاد يتم له ما أراد، لولا سبب تافه، فقد فاته أن يدخل الامتحان قبل سن العشرين فضاعت عليه الفرصة، وعندئذ اتجهت نيته إلى الكلية الحربية، فدخلها، وبعد أن انقضت أيام الدراسة، ارتقى في رتب الجيش بسرعة مذهلة. ويعزى ذلك إلى معرفته، وتدريبه، واتزانه، وأخلاقه، ومقدرته على الإنجاز، وفوق كل اعتبار آخر، لقدرته على قيادة الرجال! وقد عرف أحدهم القائد بأنه الرجل الذي يستطيع أن يستميل الناس إلى جانبه من غير وعد أو وعيد، وقد كان الجنرال أيزنهاور في طليعة هذا الطراز من القادة. فان كل من عرفه كان يتعلق به، ويدعوه بقائد الجيش المفضل فقد برزت فيه تلك الصفة التي لا تعريف لها، والتي يسمونها بالشخصية!

واسمعوا شهادة زوجته عنه – وما ينبئك مثل خبير! – فهي تقول عنه: "إن له أعظم تقطيبة فاتنة رأيتها في حياتي!" ثم تتابع شهادتها فتضيف: "إن آيك محدث بارع، فجعبته دائما ممتلئة، وهو يستطيع أن يحدثك عن سعة اطلاع في كل شيء تقريبا. وإنه لأمر يطرب القلب أن تسمعه محدثا. لقد عشت معه سنين كثيرة وهو لا يزال يستهويني ويأسر قلبي" وإن شهادة كهذه صادرة من قلب زوجة لأندر من الياقوت الأحمر!

وقد أعجب أيزنهاور يوما برجل من سكان شمال إفريقيا فقال له "يعجبني فيك يا أخي أنك لست قفازا إلى المجد" وقد ترامت هذه الكلمة إلى أسماع تشرشل فقالها لأيزنهاور بنصها وفصها: "يعجبني فيك

يا آيك أنك لست قفازا إلى المجد"، وقد صدق! أيزنهاور لا يقفز اطلاقا إلى المجد، ولا يمشي مشية مختال فخور، ولا يقبل مديحا ليس أهلا له– فهو و"إبراهام لنكولن" سيان في عزوفهما عن المجد الشخصي – وهو ينفر من تزيين صدره بالأوسمة، وقليلا ما نراه يلبس النياشين الحربية.. وفي أثناء إقامته بإنجلترا كان حريصا على الوقت كل الحرص، فكان يعتذر عن حضور الحفلات الاجتماعية المهمة. وكان يلح على الناس أن يعطوا مقر عمله (اسمه الصحيح وهو "رئاسة القوات المتحدة" وليس "رئاسة أيزنهاور" كما درجوا على تسميتها)..

و"أياك" لا يذوق الخمر بتاتا، وحجته في الامتناع هي أن رأسه ملئ بالأسرار التي لا يأتمن لسانه عليها إذا سكر، وفي زمن السلم يحب أن يتسلى بلعبتي البريدج والبوكر، وهو الكاسب في أغلب الحالات، سيما إذا لعب البوكر لأنه خبير بدقائقها، فضلا عن أنه يجيد قراءة الطبيعة البشرية..

أما عن معرفته بتاريخ الحروب فهذه ظاهرة تلفت الأنظار سأله أحدهم وهو يقود الحملة في شمال إفريقيا عن حملة هانيبال في إيطاليا، فادهش أيزنهاور سامعيه إذ ظل مدة أربعين دقيقة يشرح حملة هانيبال بالتفصيل، وقد زعم أحد رجال أيزنهاور أن الذاكرة قد لا تسعفه في سرد التفاصيل الكثيرة لحروب دارت رحاها قبل ميلاد المسيح بمائتي عام، فأراد أن يراجعه في بعض الحقائق.. ولكنه شهد أخيرا بأن أيزنهاور كان على صواب في كل ما ذكر. ويرجع هذا الاطلاع الواسع إلى أنه منذ

تخرجه في الكلية الحربية وهو يقضي معظم أوقات فراغه في دراسة التاريخ الحربي والمشاكل الحربية، وهو قارئ سريع. وقد روى لي ابنه أنه في زمن السلام كان يقرأ في ليلة واحدة كومة كبيرة من المجلات القصصية ولكن عندما وضعت على كاهله أعباء القيادة في أوروبا، طار إلى إنجلترا ولم يأخذ معه إلا كتابا واحدا، هو الكتاب المقدس!

وهو في العادة يعمل من ستة عشر إلى ثمانية عشر ساعة يوميا، إذ يقول أنه تكفيه للنوم خمس ساعات فقط، ويستيقظ عند بزوغ الفجر، وليس هذا بالشيء الجديد في حياته، فمنذ صباه في ولاية كنساس كان من عادته أن ينهض من النوم في منتصف الساعة الخامسة الساعة الخامسة صباحا، في أبرد أيام الشتاء، وقت أن تنخفض الحرارة إلى عشرين درجة تحت الصفر ليشعل نارا في الموقد، وليطهو طعام الإفطار للأسرة!

والحديث عن طهو الطعام يذكرنا بأن الجنرال أيزنهاور ذواقة للطعام الجيد، فقد كان لأمه ستة أبناء، ولم ترزق بنتا واحدة، فكان لزاما عليه أن يعينها في شئون الطعام. وحدثني أحد أشقائه بأن أباه كان فخورا به لاتقانه فنون الطعام، وخصوصا "سلطة" البطاطس وحساء الخضر. وهو يقول إنه يستطيع أن يصنع أعظم حساء للخضر في العالم! والمعروف عنه أنه يقصي زوجته خارج المطبخ أحيانا، ويطهو الطعام، ويرتب المائدة، ثم يغسل الأطباق بعد ذلك، ولا عجب أن تقول فيه زوجته أنه أبرع من رأته عيناها!

على أن "آيك" أيزنهاور لم يصل إلى أعلى الدرجات العلمية وهو طالب بالكلية الحربية، وإنما كان ترتيبه الحادي والستين في فرقته التي كان مجموع طلابها مائة وأربعة وستين! ولكنه نال ما هو أعظم قدرا من الدرجات العالية: نال البصيرة النيرة التي ترى المستقبل المجهول، واستطاع أن يرى أن حربا عالمية ثانية آتية لا محالة، وأكثر من الحديث عنها – حتى لقبوه بـ "آيك المتشائم" – واستطاع أن يرى أيضا أن الطائر والدبابة ستحدثان انقلابا في العمليات الحربية. وأراد أن ينضم إلى سلاح الطيران، ولكن عروسه عارضته.. فاتجه إلى الدبابات، ونظم أول سلاح للدبابات عرفه جيش الولايات المتحدة! ثم رقى – في عيد ميلاده الثامن والعشرين – إلى رتبة قائمقام سلاح الدبابات.. وكان يتأهب للسفر إلى أوربا على رأس فرقة الدبابات في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر عام ١٩١٨ وإذا بالحرب تنتهي فجأة!

وثمة حقيقة لا بد من إظهارها عن الجنرال أيزنهاور، فمع أنه قاد أعظم مجموعة عرفها التاريخ من قوات البر والبحر والجو، إلا أنه شخصيا لم يدخل ساحة القتال، ولو على رأس فرقة عسكرية واحدة! بل أن مئات الألوف من أقل الجنود رتبة يفوقونه في الخبرة العملية في ميادين القتال! وإنما انحصرت مهمته في تنسيق، وتوحيد، وتوجيه قادة الجيوش والأساطيل الذين كان عليهم أن يقوموا بتمثيل "رواية الحرب"

والاسم الكامل لأيزنهاور هو "دوايت دافيد أيزنهاور"، وقد كانت

أمه تعترض بشدة على تسميته "أيك"، بل أنها نسيت أنه يعرف وينادى بهذا الاسم!.. وذات يوم بعثت زوجة أيزنهاور خطابا إلى حماتها تقول لها في في سياق الحديث عن رحلتها الممتعة مع أيك: "وآمل أن أمكث واياه قليلا في (أبيلين)"، فردت عليها حماتها تقول أنه يسعدها كثيرا أن تراها ولكنها أرادت أن تعرف من يكون "أيك" هذا الذي يرافقها في السفر!

ولا تزال أم أيزنهاور، وقد تقدمت بها الأيام، تقطن في "أبيلين"، وذات يوم جلست تطل من نافذتها على الفتيان وهم يمشون مشية عسكرية في الشوارع، فتمتمت لصديقة جالسة إلى جوارها: "إن لي أنا أيضا فتى في الجيش" أجل يا أم أيزنهاور: إن لك أيضا فتى في الجيش.. وأي فتى!

الإمبراطورة جوزفين . تعرف كيف تسوس الرجال!

"ماري روز جوزفين تاشيه دي لاباجيري"صاحبة هذا الاسم الطويل هي الإمبراطورة جوزفين، أولى زوجات نابليون بونابرت، ولدت في ٢٣ يونيو سنة ١٧٦٣ بجزيرة مارتينيك، وتزوجت في سنة ١٧٧٩ من "فيكونت ألكسندر بوهارنيه" الذي أعدم أثناء الثورة الفرنسية، فعاشت تعاني شظف العيش، التقت بنابليون بونابرت في أوائل شهرته في سنة ١٧٩٥ و تزوجا في مارس سنة ١٧٩٦ زواجا مدني .

عندما توج نابليون إمبراطوارا في ١٨ مايو سنة ١٨٩٤ حملته على إعادة قرانهما وفقا للطقوس الدينية، وتوجت معه إمبراطورة على أن هذا ثم يصده عن أن يطلقها عقب الحملة التي قام بها في سنة ١٨٠٩، متعللا برغبته في إنجاب ولد يرث عرشه، فعاشت بعد ذلك في عزلة، بالرغم من أن نابليون ظل يطلب مشورتها في أمور الحكم حتى ماتت سنة ١٨١٤.

هذه قصة فتاة فقيرة ولدت في قرية صيد في جزر الهند الغربية، وعاشت في بضع غرف عارية قذرة فوق معمل التكرير السكر!.. وهي في الوقت نفسه قصة فتاة تزوجت من أشهر رجال في تاريخ العالم قاطبة! كان اسمها "ماري جوزيف روز تاشر لاباجيري"، ولكنها تعرف عادة باسم "جوزيفين"!

كانت جوزيفين تكبر نابليون بست سنوات، وعندما تقابلا لأول مرة كانت هى في الثالثة والثلاثين وهو في السابعة والعشرين. ولم تكن جميلة، بل كانت أسنانها على الأخص قبيحة المنظر، وكان لها ولدان كبيران، وفوق هذا وذاك كانت مدينة، بل غارقة في الديون حتى لقد كانت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في قبضة البوليس!

ومن ثم فينبغي أن نسلم بأنها بدأت حياتها ومجموعة من الصعاب القاسية تعترضها، ولكن كانت فيها صفة واحدة هائلة تعوضها عما ينقصها، كانت تعرف كيف تسوس الرجال، فقد كانت أرملة مرت بالكثير من التجارب والاختبارات!

وعندما قطع الثوار الفرنسيون رأس زوجها الأول، وجدت جوزيفين نفسها بغير عائل، ففعلت ما تفعله كل الأرامل العاقلات: بدأت تبحث عن زوج! وأخبرها أحد أصدقائها عن نابليون، ولم يكن قد ذاع صيته بعد، ولا كان يملك شيئا، بل كان عائدا لتوه من إحدى المعارك الحربية. والغنيمة الوحيدة التي جلبها معه من المعركة كانت مرضا جلديا لعينا، اضطر كي يتخلص منه إلى أن يقص شعر رأسه!

ولكن أصدقاء جوزفين أخبروها بأن نابليون ينتظره مستقبل باسم، ولما كانت جوزفين امرأة من البشر، فقد سعت إلى رؤيته! ولكن كيف تتمكن من رؤيته؟ لقد اصطنعت حيلة بارعة كي تصل إلى بغيتها: أرسلت ابنها الصغير – وكان يبلغ من العمر اثنى عشر عاما – ليسأل نابليون

عما اذا كان يستطيع أن يسترد سيف والده المتوفى (والد الغلام)؟

وطبعا أجاب نابليون بالإيجاب، وفي اليوم التالي تزينت جوزفين وذهبت، والدموع في عينيها، لتشكر نابليون على عطفه وأريحيته!.. فتركت شخصيتها وجاذبيتها الفائقة أثرا بالغا في نفس نابليون، الذي أدرك أنها تفوقه من حيث المستوى الاجتماعي.. ومن ثم فقد أحس بالزهو يملأ أعطافه حين دعته لتناول الشاي في بيتها!. وعندما لبى الدعوة أرضت غروره مرة أخرى بقولها أنها تتنبأ له بأنه سوف يصبح من أعظم قواد التاريخ!.. فلم تنقض على ذلك اللقاء ثلاثة أشهر حتى أعلنت خطبتهما!

وكانت عند نابليون نزعة متأصلة للمحافظة على مواعيده، بل لقد كان شعاره الذي يحرص عليه كل الحرص أن "الوقت من ذهب"، ومن مأثور أقواله في هذا الصدد: "قد أفقد المعارك، ولكن أحدا لن يراني أفقد الدقائق!" ومع ذلك فقد تأخر عن موعد زواجه ساعتين! وخلال فترة الانتظار الطويلة بلغ التعب من موثوق العقود الذي جاء ليعقد القران أنه أخذ يتثاءب ويغالب النوم، لكن النعاس غلبه في النهاية، فنام قبل أن يصل نابليون!

ولم تمض على الزواج ثمان وأربعون ساعة حتى انطلق نابليون ليشن حربا جديدة في إيطاليا، وكان جيشه في تلك الآونة جائعا، بالي الثياب، ومع ذلك فقد أبلى أحسن البلاء في معركة سرت أنباؤها في القارة مسرى البرق، فلم تكن أوربا قد رأت قتالا مثل ذاك في مدى ألف عام!

ولكن الذي يثير الدهشة حقا أنه حتى في تلك الظروف التاريخية العصيبة وجد نابليون الوقت والفرصة كي يكتب إلى جوزفين رسائل كل يوم.. وأية رسائل؟ رسائل حارة، ملتهبة، عاصفة! (وقد بيعت ثمان من هذه الرسائل الغرامية في سنة **١٩٣٣** في مزاد علني بمدينة لندن مقابل أربعة ألاف جنيه!).. ولقد أتيح لي أن أقرأ بعض هذه الرسائل، فخرجت من مطالعتها باعتقاد أنها تساوي كل هذا المبلغ – حتى في هذه الأيام – وإليك نموذجا منها:

"عزيزتي جوزفين.. لقد ألهمتني حبا سلبني عقلي، حتى لقد بت لا أستطيع أن آكل، أو أنام، أو أعنى بأصدقائي، أو أعنى بالمجد.. فما غدت للنصر قيمة عندي إلا في كونه يثلج صدرك.. ولولا ذلك لتركت الجيش وهرعت عائدا إلى باريس لألقي بنفسي عند قدميك.. لقد ألهمتني حبا ليس له حد، وأفعمتني حماسة دافقة تسكر أعطافي.. بحيث لا تمر ساعة لا أتطلع فيها إلى صورتك، وأغمرها بالقبلات!"

وهذه العبارات تعتبر فاترة بالقياس إلى بعض العبارات الأخرى الملتهبة التي كتبها القائد الشاب إلى زوجته في مناسبات مختلفة. ولست أشك في أن أكثر النساء لا يحجمن عن التضحية بذراعهن اليمنى كيما توجه إليهن رسائل كهذه!.. لكن جوزفين لم تبد مع ذلك كبير اهتمام برسائل نابليون إليها، فقد كانت مشغولة بمغازلة عاشق آخر!

واستشاط نابليون غضبا من إهمال زوجته في الرد على خطاباته،

وأمضه عدم اكتراثها، فعمد إلى الانتقام منها أثناء حملته على مصر بدعوة فتاة شقراء إلى تناول الشاي معه، وبلغ النبأ مسامع جوزفين في باريس، رغم بعد الشقة، فلما عاد نابليون إلى فرنسا حاسبته على فعلته حسابا عسيرا – كما تفعل الزوجات عادة في مثل هذه الأحوال – وخلال الشجار صارحته جوزفين برأيها فيه، وصارحها هو برأيه فيها، وانتهى به الأمر إلى أن أوصد بابه دونها!

وقد أعقبت تلك الأزمة متاعب جمة في الأسرة، وعلى الأخص بين جوزفين وشقيقات نابليون، فقد كانت هي تفوقهن تهذيبا. الأمر الذي أثار فيهن شعور الغيرة منها والحسد لها.. وصور لهن الوهم مختلف التصورات! صرن يعتقدن أنها تكيد لهن، فجن لذلك جنونهن. وأقسمن أن يعاملن وإياها على قدم المساواة، ويطاولن مكانتها عند أخيهن، فبدأن يغرن منها، ويطلقن عليها لقب "العجوز"! ثم رحن يوحين إلى نابليون بأنه كان ينبغي أن يطلق زوجته "البدينة العجوز" ويتزوج من أخرى تصغرها في السن.. الخ

ولكن برغم ما أطلقن به ألسنتهن ضد جوزفين، فقد عجزن عن قتل حب نابليون لها.. لم يفلح في انتزاع حبها من قلبه أي شيء.. لا شيء على الإطلاق! ومع ذلك فقد جاء اليوم الذي قرر فيه تطليقها، لسبب واحد لا غير: أراد زوجة تنجب له وريثا، لعرشه ومجده!.. ولقد حطم قلبه أن يضطر إلى هذا الطلاق، فبكى وهو يوقع وثيقته، ثم قضى الأيام

الثلاثة التالية جالسا في قصره يحملق في الفضاء، شارد الذهن، رافضا مقابلة أي إنسان، أو تصريف شيء من شؤون الدولة!

ولكن لم تمض على الطلاق مدة وجيزة حتى نابليون من الأميرة النمسوية "ماري لويز"، والعجيب في أمر هذا الزواج أن ماري لويز – شأن سائر النمسويات – نشأت وربيت على احتقار عدو وطنها اللدود نابليون! ولقد تضرعت إلى الله أن لا تضطر للزواج منه، ولكن أباها أصر على إتمام "الصفقة" لأغراض سياسية! فعقدت الزيجة "غيابيا" بمقتضى توكيل، بغير حتى أن يقع بصر الزوجة على زوجها.. وكانت النتيجة المنطقية لذلك أنها عاشت لا تحفل به! وعندما بدأ يفقد معاركه الحربية وأخذ نجمه في الأفول، هجرته.. بل وعلمت ابنه الوحيد الذي أنجبته له أن يكرهه!

والواقع أن حب نابليون الأول والأخير، وحبه الحقيقي الأوحد كان لجوزفين!.. فلما ماتت زار قبرها، وأكب عليه يبكيها منتحبا بحرقة: "حبيبتي جوزفين.. إنها على الأقل ما كانت لتهجرني قط!"

وعندما حضرته الوفاة، كانت آخر كلمة لفظتها شفتاه: "جوزفين!"

هـ . ج . ويلز .. رائد أدب الخيال العلمي في العالم

هو هربرت جورج ويلز، كاتب وروائي إنجليزي اشتهر بكتابة قصص الخيال العلمي، ولد في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٦٦ لأسرة فقيرة، فلم يكمل تعليمه المدرسي إذ اضطر لترك مقاعد الدراسة والعمل مساعدا لتاجر أقمشة بعد إفلاس والده.

شغف بالقراءة، واستطاع أن يفوز ببعض المنح والجوائز التي مكنته من إتمام دراسته بالمجان بجامعة لندن،

عام ١٨٨٩، وقد بدأ ويلز دراسته في مدرسة "ميدهيرست" وفي جيل ١٨ عاما حصل على منحة تعليمية في مدرسة العلوم في لندن. مما أهله لأن يعمل بتدريس علم الأحياء، ثم انصرف إلى الصحافة.

نشرت روايته الأولى عام ١٨٩٥ وحملت عنوان آلة الزمن، نشر روايته الثانية عام ١٨٩٦ بعنوان "جزيرة الدكتور مورو" عن عالم مجنون يحول الحيوانات إلى كائنات بشرية. عام ١٨٩٧ نشر الرجل الخفي عن عالم ينجح بإخفاء نفسه ونشر حرب العوالم عام ١٨٩٨ عن غزو كائنات مريخية للأرض. روايته أول رجال على سطح القمر تعتبر تنبؤاً في أساليب ريادة الفضاء، وأثناء الحرب العالمية الثانية عاش ويلز في ريجنس بارك في لندن، وقد رفض مغادرتها رغم القصف. كتابه الأخير

المنشور عام ١٩٤٥ يحمل نظرة متشائمة حول مستقبل البشرية. وقد لازمته تلك النظرة حتى توفي في ١٣ أغسطس ١٩٤٦.

ربما التجربة التي تعرض لها في طفولته كان لها أبلغ الأثر في مستقبله، كان لفيف من الأطفال يلعبون في إحدى ضواحي لندن، وإذا بحادث يقع فيعكر عليهم صفوهم؛ فقد أمسك أحد الأولاد الكبار بولد صغير يدعى "برتي ويلز" وقذف به في الهواء.. وبدلا من أن يتلقاه بعد ذلك وهو يهوي إلى الأرض، دفعه بكل قوته.. فكسرت ساقه!

وقضى برتي في الفراش شهورا يتلوى من الألم، وحول قدمه حمل ثقيل من الأربطة.. غير أن العظمة المكسورة لم تلتئم التئاما صحيحا، فكان لا بد من إعادة كسرها! وكانت تجربة فظيعة بالنسبة للصغير برتي، الذي راح يصرخ أثناءها من الألم والفزع معا..

وبدا هذا الحادث في حينه كمأساة، ولكن برتي عاش ليستشف من ورائه خيرا عميما، فقد أصبح من أشهر المؤلفين في العالم أجمع! – وإن كنت لا تعرف باسم "برتي" بل باسم "هربت جورج ويلز" أو "هـ. ج. ويلز".. وربما تكون قد قرأت بالفعل بعض كتبه، فقد وضع أكثر من خمسة وسبعين كتابا!

ولقد اعترف "ويلز" بأن كسر ساقه ربما كان من أسعد حوادث حياته! لماذا؟ لأنه قيده في الفراش في بيته مدة عام كامل، فكان يلتهم أثناء ذلك كل كتاب يمكنه الحصول عليه – لأنه لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئا

آخر! – وكانت النتيجة أنه شحذ ذوقه الأدبي وحبه للكتب، فحفزته القراءة كما ألهمه الأدب، وعول على التغلب بهما على ما يكتنفه من سآمة وضجر. وهكذا كانت تلك الساق المكسورة نقطة التحول في حياته!

لقد صار "هـ. ج. ويلز" من أغلى المؤلفين أجرا في الألم كله، ويرجع أنه اقتنى من قلمه ثروة تقدر بمائتي ألف جنيه! – مع أنه تربى في أحضان فقر مدقع، فقد كان أبوه من لاعبي (الكريكيت) المحترفين، وكان له محل صغير لتجارة الأواني الصينية يترنح على شفا الإفلاس. وقد ولد هـ. ج. ويلز في حجرة ضيقة واقعة فوق ذلك المتجر. وكان مطبخ البيت يقع في "البدروم"، وكان مظلما رطبا ضيقا يتسرب بصيص النور الوحيد إليه آتيا من فجوة ضيقة في إفريز الشارع المرتفع فوقه. وكان من ذكريات ويلز الأولى، جلوسه في ذلك المطبخ المظلم يراقب أقدام الناس وهي تسير من خلال الفجوة الحديدية الضيقة! وقد كتب عن تلك الأقدام بعد ذلك بسنوات، فأوضح كيف أنه تعلم أن يحكم على الناس من الأحذية التي يلبسونها!

وأخيرا أفلس متجر الأواني الصينية فخيم اليأس على العائلة حتى اضطرت الأم لأن تعمل مديرة لأحد المنازل في ضيعة كبيرة في (سسيكس). وكان من الطبيعي أن تعيش هناك مع الخدم، وكان ابنها كثيرا ما يذهب إليها لزيارتها. وفي ذلك المكان لاحت في أفق ويلز أول نظرة عن الحياة الإنجليزية الراقية، وقد تلقاها من جناح الخدم!

ومؤلف "خلاصة التاريخ" بدأ حياته العملية في سن الثالثة عشر صبيا في محل لبيع الأقمشة، وكان عليه أن يستيقظ في الخامسة صباحا فيكنس المتجر ويوقد النار ويعمل عمل العبيد مدة أربع عشرة ساعة في اليوم.. فمج ذلك العمل لأنه كان نوعا من التعذيب، وفي نهاية الشهر طرده صاحب المحل لأنه كان "أشعث الهندام، مهملا، ومشاغبا!"

وحصل ويلز بعد ذلك على عمل في صيدلية، وللمرة الثانية طرد في نهاية الشهر!.. وأخيرا حصل على عمل في متجر آخر للأقمشة، ولما كان يتحتم عليه أن يحصل على لقمة العيش فقد صمد في هذه المرة وقتا أطول، ولكنه كان يغافل المراقب وينزل إلى المخزن في الدور الاسفل ليكب على قراءة كتب "هربرت سبنسر"!

وانقضى عامان لم يطق ويلز بعدهما صبرا على هذا النوع من الحياة، واستيقظ في صبيحة أحد أيام الأحد، ودون أن يتناول طعام الإفطار، جرجر ساقيه، وسار متحاملا على نفسه مسافة خمسة عشر ميلا، وبطنه خاوية، إلى حيث كانت أمه.. كان ثائرا كالمجنون، وقد أخذ يتضرع إليها ويبكي. وأقسم ليقتلن نفسه إذا أرغم على البقاء في ذلك المتجر بعد ذلك!.. ثم كتب خطابا طويلا مؤثرا إلى ناظر مدرسته المسن قال له فيه أنه تعس كسير القلب وأنه لا يريد أن يعيش أكثر مما عاش.. ولفرط دهشته، تلقى رد ناظر المدرسة يعرض عليه فيه وظيفة.. مدرس!

يا الله! لقد كانت هذه نقطة تحول أخرى في حياته. ومع ذلك فإن

هـ. ج. ويلز يقول لنا فيما أعقب ذلك من سني حياته، بصوته الحاد المرتفع، إن سني التعاسة الطويلة العصيبة التي قضاها في محل بيع الأقمشة كانت بركة مقنعة.. فقد كان بطبعه كسولا خاملا، فعلمه متجر الأقمشة أن يعمل، بغير أن يتعب أو يمل!

وبعد سنوات قليلة من ممارسته مهنة التدريس حلت به كارثة كأنها انفجار مفاجئ: كان يلعب كرة القدم، وفي حرارة اللعب وحماسته سقط على الأرض وديس بالأقدام وأوشك أن يقتل! وتفتت إحدى كليتيه، وثقبت رئته اليمنى، وأصيب بنزيف شديد. ويئس الأطباء من شفائه، حتى لقد ظل عدة شهور مهددا بموت متوقع في كل لحظة! لكنه عاش.. وإن بقي طوال اثنى عشر عاما رهيبة متعلقا بأهداب الحياة وهو نصف عاجز!.. ومع ذلك، فأثناء تلك السنوات الأليمة تمكن من أن يشحذ مقدرته إلى الحد الذي جعل اسمه معروفا في أرجاء العالم المتمدين!.. فقد ظل يكتب بحماسة دافقة زهاء خمس سنوات.. ولكن الكتب والمقالات والقصص التي أخرجها كانت غثة، وليدة الهواية. كان عند ويلز من سلامة التقدير ما جعله يدرك هذه الحقيقة، فأحرق كل ما كتبه تقريبا!.. وأخيرا، وبالرغم من أنه كان نصف عاجز، حصل على وظيفة أخرى للتدريس. وكانت هناك فتاة جميلة تحضر دروس علم الحياة تدعى "كاترين روبنز"، فوجد هـ. ج. ويلز نفسه أكثر اهتماما بكاترين منه بعلم الحياة! وكانت الفتاة ضعيفة يبدو عليها المرض.. وكان هو كذلك، فأرادا

أن ينتهلا من الحياة كل ما يستطيعان انتهاله من سعادة في الحال.. فتزوجا! وبدلا من أن يموت ويلز، استعاد قوته وتحول إلى محرك آدمي مولد للنشاط، يخرج كتابين طويلين كاملين كل عام.. من هذه الكتب التي تجاوبت أصداؤها في العالم حتى وفاته في سنة ١٩٤٦.. لقد كان ذهن ويلز يشتعل بالأفكار اشتعالا.. فكان يستيقظ في منتصف الليل ليدون في مفكرته خواطر طارئة.. وإذ بذلك الغلام الكسول الذي طرد مرة من محل بيع الأقمشة لعدم كفاءته، يجمع في مفكراته مادة من الكثرة بحيث كانت تكفيه لتأليف كتب لمدة مائة وخمسين عاما!

وكان ويلز يستطيع الكتابة في أي مكان: في مكتبه في لندن، وفي القطار، أو تحت مظلة على الشاطئ بجوار مياه البحر الأبيض المغرية الزرقاء. وقد استأجر منزلين صغيرين على الريفييرا الفرنسية، خصص أحدهما للعمل والثاني ضيوفه في المساء فقط، وفي الحالات التي لم يكن في مقدوره فيها أن يذهب إلى المحطة لاستقبالهم، كان يعمد إلى خير تعويض يمكنه أن يعوضهم به عن تخلفه: كان يرسل إليهم سيارة كبيرة لاستقبالهم ويرسل مع السائق مفتاح "الكهف" المزود بكميات كبيرة من الخمور المعتقة.. فإذا ما مضى أخيرا للقاء ضيوفه في المساء، فإنه كان يجدهم من فعل الخمر في أحسن حال، وخير مزاج!

نظام حيدر أباد .. من أين جمع ثروته؟

إن أغنى رجل في العالم يأكل بأصابعه، فهو لا يستعمل سكينا ولا شوكة ولا ملعقة، وحتى الحساء يشربه بأطراف أصابعه! ولست أعني بأغنى رجل في العالم مستر "مورجان" الرجل صعب المراس، ولا مستر "فورد" الرجل الذي لا يهدأ.. كلا.. بل إن أغنى رجل في العالم لم يسبق له مطلقا ممارسة التجارة، ولم ير في حياته قط حي المال والأعمال "وول ستريت"، وأغلب الناس لم يسمعوا باسمه على الإطلاق!

إن اسم هذا الرجل هو "نظام عثمان على خان باهادور فاتش جانج عساف جاه"، ولكنه يدعى في العادة "نظام حيدر أباد" وهو سليل أباطرة المغول الأقدمين الذين اكتسحوا ممر "خيبر" ونهبوا الهند منذ قرون مضت. وهو يحكم بيد من حديد أغنى ولاية في الهند.

ماذا تراه يصنع بكل هذه الثروة؟ أجل.. إن أول ما يطالعك في قصره "حريم" يحتوي على أكثر من خمسمائة امرأة! ولكن محظيته المفضلة بينهن واحدة، تتجول في سيارة "رولز رويس" مقفلة أسدلت الستائر على نوافذها حتى لا يتمكن الهمل من الدهماء من التفرس في وجهها الملكي! وفيما عداها لا يعبأ "نظام" كثيرا بالجميلات الأخريات في "حريمه". هل قلت "الجميلات"؟ إن هذا القول مبالغ فيه بعض

الشيء، فقد ورث "نظام" حريمه عن والده الذي توفي منذ أكثر من ثلاثة وعشرين عاما. ولعل نساء هذا الحريم كن في جمال جين هارلو منذ أكثر من ثلاثة وعشرين عاما، ولكن واحدة منهن لا يمكنها أن تفوز بجائزة في مسابقة للجمال تقام اليوم! لأن مر السنين قد ترك آثاره على وجوههن، ومع ذلك فإن "نظام صارم معهن إلى حد أنه لا يسمح حتى للأغوات بالدخول إلى حريمه!"

ويستيقظ أغنى رجل في العالم كل صباح قبل الفجر، ولكنه لا يضطر إلى القفز من فراشه ليوقف جرس "المنبه" لأن "جلالته" يوقظ من أحلامه بواسطة فريق من الموسيقيين يتسللون إلى مخدعه وهو نائم فيعزفون له ويغنون أرق وأعذب الأنغام! ونظرا لكون "نظام" مسلما فهو ينهض مبكرا ليتمكن من أن يمد بساطه المعد للصلاة ويولي وجهه شطر مكة ثم ينحني خاشعا أمام الله ويسكب روحه في الصلاة، عندما تلوح الشمس على تلال حيدر أباد.

وبين حاشية "نظام" أربعة خدم عملهم الوحدة في الحياة هو أن يلبسوه ملابسه، وقد تخصص كل منهم في إلباس جزء من جسمه الملكي! فأحدهم مثلا مختص بالسراويل – (وإنه ليعتبرها إهانة له إذا طلب إليه مثلا أن يساعد في إلباس الملك قميصه! كلا يا سيدي.. وإنما هو لا يكاد ينتهي من سراويل النظام حتى يجلس في الظل ويستريح، في انتظار استئناف عمله في الصباح التالي!

والنظام ملك مطلق، له حق الحياة والموت على رعاياه البالغ عددهم أكثر من ١٦ مليونا من الأنفس.. وعند مروره يخر عامة الناس أمامه على الارض بخشوع..

وبالرغم من أنه يأخذ حماما معطرا كل صباح، فإنه لا يستعمل الصابون، بل يستعمل بدلا منه مسخوقا مستخرجا من قشر بعض الأشجار، وهو لا يتناول طعام الإفطار إلا بعد أن يستيقظ بأربع ساعات، وعندئذ يتناول وجبة تجمع ما بين الإفطار والغداء! وهو لا يشرب الشاي ولا القهوة بل يشرب اللبن أو الماء البارد القراح، ويتناول "نظام حيدر أباد" إفطاره على صحاف من الذهب الخالص! ويا له من إفطار: إنه مكون من اثني عشر صنفا من الحساء الساخن.. يضاف إليها البيض الذي يسلق ثم يمزج باللحم ويصنع على شكل قوالب ثم يحفظ ليلقى عند الطلب"، ومع كل ذلك فإن فم "نظام" الذي أنهكه الأكل لا تزال تغريه أطباق نادرة من لحم الطاووس والطيور المتوحشة وعصافير الجنة، وهو يلبس في العادة رداء من الحرير الأبيض موشى بالذهب، وحول عنقه عقود من اللؤلؤ والماس. ومع ذلك رؤي مرات في أماكن عامة مدثرا بعباءة سوداء ملونة بالشحم! ومع أن له حلاقا كل عمله في الحياة هو أن يجعله حسن المظهر دائما إلا أنه يتسلل أحيانا ليقوم ببعض الجولات، بذقن غير حليقة وشعر طويل أشعث!

وعند النظام مقاعد وأرائك وعربات، بل ومدافع مصنوعة من

الذهب، ومطعمة بالزمرد والأحجار الكريمة! ومن الطبيعي أنه لا يستطيع أن يطلق هذه المدافع الذهبية، لأنها أضعف من أن تحتمل هذا، ولكنها تترك تأثيرا هائلا في نفس الزائر عند رؤيتها..

ترى كيف ومتى حصل نظام حيدر أباد على كل هذه الثروة؟ إن جزءا كبيرا منها جاءه من وادي "كولكوندا" التي يفوق غناها حد التصور استخرجت أشهر الجواهر المعروفة في العالم كالجوهرة الضخمة التي يخطف شعاعها الأبصار والمشهور باسم "كوهينور"، وهي موجودة الآن في التاج البريطاني.. وماسة "هوب" المشئومة التي تجر وراءها أينما انتقلت سلسلة من الخرافات والمآسي الدموية! ثم ماسة "أورلوف" الهائلة التي كانت تضعها الإمبراطورة كاترين على هامة تاجها الملكي الغشوم.. الخ.

وبالرغم من هذه الثروة الطائلة، فإن النظام يحب أن يربح بعض الجنيهات مثلك ومثلي؛ فهو يولم مثلا في بعض الأحيان ولائم فاخرة، ولكنه ينتظر من ضيوفه المدعوين أن يحضر كل منهم معه هدية مالية مناسبة.. فإذا كان المدعوون للعشاء في إحدى المناسبات خمسمائة مدعوا مثلا، وأنقده كل مدعو جنيهين، فإنك تستطيع أن تقدر المبلغ الذي يحصل عليه في الوليمة الواحدة!

وهو يخرج في جولات منتظمة إلى المتاجر العامة لشراء بعض الحاجيات، ويذوق في طريقة هذا اللون من الطعام أو ذاك، وحين يعجب جلالته بشيء فإن العادة جرت بأن يعطي له صاحب المتجر ما يروقه

مجانا! وعليه فهو يعود من جولته إلى قصره محملا بسلال مملوءة بالأطعمة التي لم تكلفه شيئا!.. وأحيانا يرسل هذه السلال إلى أصدقائه ومع كل منها تذكرة تبين الثمن الذي على الصديق أن يدفعه مقابل الشرف الذي ظفر به باستلامه هدية "النظام"!

أعلن النظام أنه بسبيل طبع كتاب يحوي أشعاره التي نظمها!.. وكان الثمن المحدد للنسخ العادية هو أربعة جنيهات للنسخة. أما النسخة "الملكية" فثمنها عشرون جنيها! وحيث أنه لا يوجد بين شراء أشعار مليكة الشاعر، فقد بيع الكتاب مقدما وقبل الطبع كما يباع الكعك الساخن!.. ولكن مرت السنون منذ ذلك التاريخ والأشعار الملكية لم تطبع قط، ولا عاد المال الذي جمع إلى أصحابه!

ويؤثر النظام الكلام بالإنجليزية، ويصطاد النمور وهو كل ظهر فيل، ويلبس أقراطا في أذنيه.. ويعطي زوجته المفضلة أربعين جنيها في الشهر لتنفقها على نفسها، وينام على فراش خشبي ليس به أي "زنبرك"!

إدجار ألان بو .. عندما يفجع الشاعر في حبه

إدجار آلان بو: شاعِرٌ وقصصيٌّ أمريكيٌّ شَهِير.ولد في بوسطن في ١٩ يناير سنة ١٨٠٩، تفتحت موهبته مبكرا فقَدْ بَدأَ قِراءةَ الشِّعْرِ وكِتابتَهُ وهُوَ فِي الخامِسةِ مِن عُمْرِهِ مِمَّا أثارَ دَهْشةَ مُعلِّميه، وطَوالَ حَياتِهِ كانَتِ الكِتابةُ مَلاذَهُ ومَلْجأَهُ مِنَ المُشْكلاتِ الكُبْرى الَّتِي عاشَها. بَدأَ بنَشْرِ شِعْرِهِ مُنذُ كانَ مُجنَّدًا وذلِكَ تَحتَ اسْمٍ مُسْتعارٍ هُوَ آلان بيري. وبجانِبِ شِعْرِهِ كانَ صاحِبَ إنْتاجٍ قصَصيٍّ مُميَّزٍ جَعلَهُ مُؤسِّسًا لِمَا عُرِفَ بأَدَب الرُّعْبِ القُوطي فقد حَفلَتْ قِصصُهُ بالفَظائِعِ والمَخاوِفِ الَّتي عَكسَتْ طَبِيعتَهُ الحَزِينةَ المُتشائِمة. وتوفي تُوُفِّيَ فَقِيرًا مَدِينًا عَنْ أَرْبعِينَ عامًا في ٧ أكتوبر ١٨٤٩م، بعْدَ عامَيْنِ مِن وَفاةِ زَوْجتِهِ الشابَّةِ الَّتي أحَبَّها بشِدَّةٍ.

كان "إدجار ألان بو" من أنبغ الروائيين العاطفيين ذوي الأسلوب الأخاذ الذين نظموا الشعر الغنائي أو ألفوا القصص الغامضة المحبوكة، وكان مقدرا له أن يقفز بخطى جبارة عبر صفحات الأدب الأمريكي.. ومع ذلك فقد طرد من جامعة فرجينيا لميله الجامح إلى المقامرة وإدمان الشراب!.. ثم أحيل إلى مجلس عسكري وطرد من الأكاديمية الحربية في (وست بوينت) لأنه تجاهل جميع القواعد المرعية وجلس في غرفته بالمعسكر "يقرض الشعر" في الوقت الذي كان يتعين فيه عليه أن يحمل بندقيته ويكون في طابوره في ساحة العرض العسكري!

وقد ترك "بو" يتيما وهو صغير، فتبناه أحد أثرياء تجار التبغ. ولكن حتى هذا التاجر الثري انتهى به الأمر إلى أن قلب له ظهر المجن فكان يضربه بالعصي، ثم طرده من منزله ورفض أن يوصي له ببنس واحد من ماله!

وكانت قصة زواج "بو" من أغرب القصص؛ فقد تزوج من ابنة عمته "فرجينيا كليم"، وفي وقت لم يكن فيه يملك شيئا –كما كانت حاله دائما! – بل أن ظروفه جميعا كانت سيئة، كانت له أخت وحيدة أصيبت بالجنون – وقد ارتاب بعض الناس في أنه هو بدوره نصف مجنون! – واجتمع فيه إدمان الخمر، والفقر فكان يحتسي كحولا رديئا.. على أن أغرب ما في قصة زواجه أن سنة كانت ضعف سن زوجته، فقد كان هو في السادسة والعشرين وهي في الثالثة عشرة!.. وطبقا لما تواضعت عليه جميع كتب الحكمة القديمة كان يجب أن ينتهي زواجه هذا بكارثة سريعة محققة، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل حدث نقيضه؛ فكان زواجه تجربة عاطفية ناجحة كل النجاح؛ فلقد أحب زوجته "الطفلة" إلى درجة العبادة، وألهمه حبه الخالد لها أروع المقطوعات الشعرية التي أضافت ثروة إلى الأدب الإنجليزي!

وقد نسج إدجار ألان بو من القصص ونظم من الشعر ما قدر له أن يحتل مكانة رفيعة بين روائع الأدب وكنوز العالم الفكرية، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يبيع هذه الأمجاد الأدبية الخالدة بما يكفيه لشراء الخبز القفار! ومن أمثلة مقطوعاته الشعرية التي كتب لها الخلود قصيدة "الغراب" الطويلة التي منها هذه السطور

"والغراب، الجاثم دون حراك، لا يزال رابضا على تمثال (بالاس) النصفي الشاحب، فوق باب حجرتي.. وفي عينيه كل مخايل شيطان يحلم.. وضوء المصباح الذي ينساب فوقه يلقي ظله على الأرض.."

وقد كتب "بو" قصيدة الغراب هذه، وأعاد كتابتها، ثم نقحها، وانكب على نظمها وتنقيحها خلال عشر سنوات دون انقطاع، وفي النهاية اضطر إلى بيعها مقابل جنيهين اثنين! – المبلغ الذي كان الممثل "جون باريمور" مثلا يحصل على أكثر منه لقاء عمل دقيقة واحدة يؤديه في هوليوود! – وهكذا نجد الصور المتحركة تدر من المال أكثر مما يدر الشعر..

بقي أن تعرف أن هذه القصيدة بعينها التي باعها "بو" مقابل جنيهين اثنين كما أسلفت، بيعت نسختها المخطوطة الأصلية أخيرا بعشرات "الألوف" من الجنيهات!.. وهذا يحدو بنا إلى التساؤل عن السبب الذي يجعلنا نترك نوابغنا يتضورون جوعا وهم أحياء، حتى إذا ما واريناهم التراب عدنا ندفع في مخطوطاتهم مبالغ خيالية!؟

وهناك في (جران كونكورس) بنيويورك، يقوم الكوخ الذي عاش فيه "بو" و"فرجينيا"، وقد كان حين استأجراه منذ ٨٨ عاما عبارة عن "عشة" متداعية الأركان متناثرة الأجزاء، أما الآن فهو محاط بمنازل ذات طوابق عالية معدة للسكنى.. لكنه من ناحية أخرى كان يومئذ أفضل منه الآن، فقد كان المكان ريفيا تحتضنه أشجار التفاح. وعندما كان الربيع يزحف قادما من الجنوب كان الهواء يهب مشبعا بعبير زهر البنفسج، وأريج

الكرز، متماوجا بطنين النحل، وبعبارة أخرى كان جنة جميلة تفرخ فيها الأحلام! وقد استأجر "بو" المكان باثني عشر شلنا في الشهر.. وحتى هذا المبلغ الضئيل لم يكن يستطيع أن يدفعه – فقد كان في أغلب الشهور لا يدفع إيجارا على الإطلاق! – بل أنه كان عاجزا حتى عن توفير الغذاء لزوجته، رغم مرضها بالسل!.. فكان التعسان يقضيان الأيام تلو الأيام على الطوى، حتى إذا بدأ العشب ينمو في فناء المنزل اقتطفاه وسلقاه ثم أكلا منه أياما متوالية!.. وأخيرا اكتشف الجيران أن بو وزوجته على شفا الموت جوعا، فقدموا إليهما سلالا محملة بالأغذية.

أليس هذا مدعاة للرثاء والألم؟ نعم، ولكن "بو" برغم ذلك كان يجد السلوى في ملكة الشعر، و"فرجينيا" تجد السلوى في ملكة الحب.. وعليه فقد كانا سعيدين برغم فقرهما المفجع!

ومنذ سنوات، اشترت ولاية (نيويورك) كوخ الشاعر الخالد وجعلت منه مزارا، فقد كان الكوخ مهبط أحلام "بو"، المملوء بذكريات حياته المشجية!

وفي ذلك المكان الشاعري ماتت فرجينيا منذ ٨٧ عاما.. وقبل وفاتها ظلت شهورا طريحة فراشها المصنوع من العش. لا يستر جسدها من الملابس ما يكفي لدفئها، فكانت إذا اشتدت عليها وطاة البرد والمرض عمدت أمها إلى تدليك يديها وزوجها إلى تدليك قدميها، ثم غطى بو جسدها المنتفض بردائه العسكري القديم البالي – الذي بقي له من مخلفات أيام دراسته في كلية "وست بوينت" الحربية – فإذا ما جن

الليل تحايل المسكين على قطعة الألياف كي يصعد فيرقد عند قدمي المريضة ليدفئهما!

وعندما ماتت فرجينيا، لم يكن "بو" يملك نفقات دفنها، ولولا عطف محسن من الجيران لأرسلت جثتها إلى مدافن (بوتر) حيث كانت تدفن جثث المعوزين! كانت وفاتها في يناير، ومضت شهور الشتاء، وحل الربيع، فارتفع القمر ساطعا فوق هامات أشجار التفاح، وتألقت النجوم في غرب الأفق، ولكن "بو" جلس يحلم، وتضطرم ضلوعه وحناياه شوقا إلى فرجينيا!.. ومن شوقه المضطرم هذا، انبثقت أجمل قصيدة حب جاشت بها مشاعر رجل نحو زوجته:

لا يسطع القمر ويعبد إلى أحلام حسنائي الجميلة (أنا بيل لي)..

ولا تتألق النجوم إلا وأشعر بصفاء عيني حسنائي الجميلة (أنا بيل لي)

وهكذا، طوال الليل، أرقد بجوار حبيبتي.. حبيبتي، حياتي وعروسي.. في ضريحها هنالك بجوار البحر

في قبرها بقرب البحر الصاخب!!

الإمبراطورة كاترين .. من الفقر المدقع إلى العرش!

كاترين الثانية، أو كاترين العظمى هي إمبراطورة روسيا ألمانية الأصل، ولدت في ٢ مايو سنة ١٧٢٩

تزوجت من ولي عهد روسيا في ٢١ أغسطس سنة ١٧٤٥. وكانت تعسة في زواجها، إذ كان زوجها مشوه الجسم ناقص العقل فكرهته وحامت الفضائح حول حياتها الخاصة، حتى أنها حين انجبت ابنها بول– بعد عشر سنوات من زواجها –كاد بطرس ينكره لولا أن خدع في شبهه بهK ودفعت أحد عشاقها لقتل زوجها بعدما أصبح القيصر، فانفردت بالعرش من سنة ١٧٦٢ إلى أن ماتت في ١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٦.

كانت الإمبراطورة كاترين أشهر إمبراطورة جلست على عرش روسيا المتألق، ومع ذلك فإن اسمها الحقيقي لم يكن "كاترين"، ولم تكن روسية، ويعتقد بعض المؤرخين بأنها لم تكن حتى عظيمة!

فعندما قدمت إلى روسيا كانت "لا شيء".. كانت مجرد أميرة ألمانية صغيرة، فقيرة فقرا مدقعا، نشأت نشأة المتشردين!.. وقد وصلت إلى روسيا وليس لها صديق، ولا تملك شروى نقير، وليس عندها إلا ثلاثة أثواب فقط!.. ومع ذلك فقد توصلت إلى الزواج من الدوق الكبير "بطرس" وارث عرش الروس!

ولكن "بطرس" لم يكن شيئا مذكورا، فقد كان ممعنا في البلاهة، تملأ وجهه الحفر التي أصابه بها مرض الجدري. وقد تعود الذهاب إلى فراشه وهو لابس حذاءه! وحتى بعد أن أصبح قيصرا، كان يسكر مع خدمه الخصوصيين، ويتناول سوطا يلهب به جنوده بيديه، وينام على البلاط ساعات دفعة واحدة، ويلهو بعرائس من الشمع يلبسها الملابس العسكرية!

وكان لكاترين عدة أطفال، ولكن زوجها نصف المجنون رفض الاعتراف ببنوة أحد منهم، زاعما أنهم ليسوا أولاده! وكان يسب كاترين علنا وأمام مئات من الزائرين، ويطلق عليها من النعوت ما لا أجرؤ على تكراره.. وهددها بتطليقها، كما هدد أيضا بسجنها في أحد الأديرة مدى الحياة!

وكان يحتقرها، وكانت هي تعافه، وعليه فقد دبرت له حركة تمرد وخلعته عن العرش، وجعلت أحد عشاقها يضع له الزرنيخ في شراب الفودكا!.. ولكنه كان قوي البنية، إلى حد أن الزرنيخ ذاته لم يستطع القضاء عليه! ومن ثم فقد ألقى به عاشق كاترين على الأرض ولف ملاءة حول عنقه وخنقه بها حتى مات!

وعندئذ، حكمت كاترين إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم مدة أربعة وثلاثين عاما، وبسطت نفوذها على بلاد يسكنها خمسون جنسا مختلفا، وكانت تدعوها "أسرتها الصغيرة"، ولم تتزوج مرة ثانية، ولكنها لم تعش وحيدة، فإن عشاقها يبلغون العشرين، وربما يبلغون المئات، كانوا يرقصون في مرقص قلبها العاطفي الحار! ومع ذلك فقد

كانت صارمة مع أحفادها حتى أنها منعتهم من دراسة علم النبات لأنهم كانوا يسألون بعض الأسئلة عن طريقة تلقيح النبات..

وكانت تحيا مع عشاقها حياة كلها متعة ورواء، وبددت عليهم مائة مليونا من الجنيهات، وبالرغم من أن يعضا منهم لم تكن له ذرة من الكفاءة، فقد جعلتهم قوادا عظاما في الجيش، ونصبتهم حكاما أثرياء ورؤساء وزارات! ثم غزت بولندا وولت أحد عشاقها ملكا عليها. ولم يكن هو يرغب في أن يصير ملكا، ولكنها كانت قد ملته، ورغبت في التخلص منه، فرأت أن تجعله ملكا كي تبعده! وبعد مضي فترة من الزمن حطمته وأعادت تاجه الموشي بالذهب إلى روسيا واستعملته في الحمام!

وكان "جريجوري أورلوف" أحد عشاقها المقربين، وكان ضابطا بالجيش، جميل الطلعة، له جسم أحد آلهة الإغريق، وأساليب رجل الكهف، وقد ألف أن يوسع الإمبراطورة ضربا مبرحا بقبضة يده، فإذا تعب منها هجرها عدة أسابيع دفعة واحدة، وراح يقبل كل خادمة جميلة في القصر! ولكن كاترين كانت حصيفة وصولية واسعة الأفق، وعليه فقد غفرت لحبيبها الجميل "أورلوف" وأحبته لدرجة العبادة، وأغدقت عليه الألقاب وأهدته قصورا وعبيدا بالألوف.. وأخيرا هرب مع إحدى الفتيات الرخيصات وأصيب بالجنون!!

على أثر ذلك أحببت الإمبراطورة كاترين عملاقا قبيح الخلقة يدعي "بوتيمكين"، وكانت له عين واحدة لأنه فقد الأخرى في مشاجرة في حانة! ومع أن "بوتيمكين" كان يقيم في قصر يتألق بكل سناء قصور

الشرق وثراءها، فإنه كان بتجول وليس في قدميه العاريتين سوى الشبشب الذي يلبس في المنزل! وكان أشعث الشعر في حاجة دائما إلى حمام، وكان يقضم أظافر يديه بأسنانه ويأكل البصل الفج والثوم! ولكن "بوتيمكين" كان إعصارا من النشاط الجسماني. وكانت مجرد لمسة من يده تملأ كاترين سعادة كلها حنان. وكانت تدعوه "ديكها الذهبي" و"حمامتها" و"طفلها المدلل"، وكان "طفلها المدلل" من أعظم القواد الذين أنجبتهم روسيا، ومع ذلك فقد كان يخاف ضوضاء البنادق ويرتجف كالتلميذ كلما سمع طلقة مدفع!

ومع أن كاترين كانت أغنى امرأة في العالم فإنها كانت تأكل مرتين في اليوم فقط. والواقع أن صاحب أي دخل متواضع يمكنه أن يستمتع بطعام أجود من الطعام الذي كثيرا ما كانت تأكله الإمبراطورة كاترين!

وكان الطعام يقدم اليها في صحاف من الذهب، وإذا حدث أن أحرق الطاهي اللحم كانت تكتفي بالضحك وتأكله مع ذلك.. ومع أنها كانت من أعظم النساء اللواتي تقلبن في أعطاف النعيم، إلا أنها لم تشرب الخمر قط، ولا أي سائل كحولي، ولكنها كانت تشرب أنواع العصير المعروفة الحلوة. وكانت تشرب أيضا خمسة أقداح من القهوة المركزة كل صباح، وكانت تستهلك في إعداد هذه الأقداح رطلا من البن! وبرغم أن كانت كاترين محاطة بمئات من الخدم، إلا أنها كثيرا ما كانت توقد النار بنفسها، ولم تدخن في حياتها قط ولكنها كانت تستنفذ كميات هائلة من السعوط الذي كان ينثر

على ملابسها فتفعم برائحته حتى لتفوح منها من بعيد..

ولما كانت طويلة القامة كالجندي قاذف القنابل، فإنها كانت ترى مزهوة للغاية وهي في العربة الإمبراطورية، وقد مدت عنقها لتظهر نفسها في قائمة أطول، مع أنها عندما كانت طفلة كان جسمها ملتويا ومشوها حتى أنها لمدة سنين كانت مضطرة لأن تلبس سترة ضيقة في الليل والنهار!

وكان تكوين جمجمة رأسها كطفلة في السادسة، بل إن نمو عظامها لم يكتمل إلا في سن السادسة والعشرين، وكانت تعاني آلاما مبرحة من حالة صداع لا ينقطع

ولما كانت متكبرة متعالية فإنها كانت لا تفض خطابا إلا إذا كان عنوانه الموجه اليها هذه العبارة: "صاحبة الجلالة الإمبراطورية"، وقد جدعت أنف أحد الرجال مرة لأنه سكر وادعى أنه زوجها!

ولما تقدمت السن بكاترين أصبحت بدينة للغاية.. بدينة إلى حد أن قدميها لم تعودا تقويان على حمل جسمها الذي كان في وزن جسم الفيل! فاضطرت إلى أن تنتقل في أنحاء القصر مدفوعة على مقعد ذي عجلات! وبرغم سقوط أسنانها، وترهلها، فإن نسمات الربيع كانت لم تزل تهب بين جنبات نفسها المشبوبة، وعليه فقد وقعت في شرك الحب ثانية. وكان الحبيب في هذه المرة شابا صغيرا في سن حفيدها. وأثناء سني حكمها الأخيرة، حكم هذا الدعي التافه المبتذل روسيا كأنه القيصر!

ماري تود .. زوجة إبراهام لنكولن .. أشقى الزيجات في التاريخ

ولدت ماري تود لينكولن في ١٣ ديسمبر ١٨١٨زوجة رئيس الولايات المتحدة السادس عشر أبراهام لينكولن، والسيدة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية من ١٨٦١ حتى ١٨٦٥. وهي تنتمي لعائلة ثرية تعمل بمجال تجارة الرقيق في ليكسينجتون بولاية كينتاكي، التقت لينكولن لأول مرة في سبرنجفيلد بولاية إلينوي في ديسمبر عام ١٨٣٩، وأعلنا خطوبتهما في ديسمبر التالي. حُدد الزفاف في الأول من يناير عام ١٨٤١م لكن ما لبث أن ألغي عندما قررا الانفصال بناءً على رغبة لينكون. بعد ذلك التقى لينكون بماري مرة أخرى في حفلة، ومن ثم تزوجا في الرابع من نوفمبر عام ١٨٤٢م وأقيم الزفاف بقصر تمتلكه أخت ماري في سبرنجفيلد. ويُروى أن لينكون أثناء استعداده لمراسم الزفاف سُئل "إلى أين أنت ذاهب؟" وتحت تأثير شعوره بالقلق مجدداً، أجاب: " للجحيم على ما أظن."، أنجبا ستة أطفال مات خمسة منهم مبكرا ولم يعش إلا واحد، وكان لوفاة أبنائهم آثاراً عميقة عليهما، فعانى أبراهام لينكون من الاكتئاب. وعاشت هي حزينة حتى توفيت في ١٦ يوليو ١٨٨٢م.

منذ قرن مضى تزوج إبراهام لنكولن من "ماري تود" في مدينة (سيرنج فيلد) بولاية "الينوي"، وقد ثبت أن زواجها كان من أتعس وأشقى الزيجات في التاريخ!

والتعليق الوحيد الذي علق به لنكولن على زواجه كان حاشية أضافها إلى خطاب خاص بالعمل، كتبه بعد أسبوع من "الحادث" إلى من يدعى "صمويل مارشال" – والخطاب الآن في حيازة جمعية شيكاغو التاريخية – وفيه يقول لنكولن "ما من أخبار جديدة سوى خبر زواجي الذي يبدو لي مدعاة للتساؤل العميق!"

وقد كان "وليم هـ. غرندون" شريك لنكولن في المحاماة لنحو ربع قرن، فأتيح له أن يعرف أكثر مما عرفه أي إنسان آخر. ويقول هرتدون: لست أعرف أن لنكولن قد صادف يوما واحدا سعيدا في مدى عشرين عاما!" وكان هرندون يعتقد أن زواج لنكولن كان من العوامل القوية لذلك الأسى والكآبة اللذين لازماه!"

وقد قضيت ثلاث سنوات أدرس وأكتب تاريخ حياة لنكولن، فخصصت حياته العائلية، بأقصى درجات العناية التي يستطيعها إنسان، وفحصت وأعدت فحص كل شاردة وواردة من الدلائل التي في حيز الوجود، فوصلت إلى هذه النتيجة الكريهة المؤلمة، وهي أن أفجع مأساة في حياة لنكولن كانت مأساة زواجه! فبعد خطبته لماري تود بوقت وجيز، بدأ لنكولن يرى بوضوح أنهما على طرفي نقيض في كل شيء: في المزاج، والأذواق، والتربية، والميول.. الخ، بحيث ما كان يمكن أن يعيشا سعيدين بحال من الأحوال! فمثلا ختمت ماري تود تعليمها بدراسة تكميلية "متقعرة" في مدرسة لبنات الطبقة الرفيعة بمدينة

(كنتاكي)، وكانت تتكلم الفرنسية بلهجة باريسية عالية، بل إنها كانت من أحسن نساء (الينوا) ثقافة! .. في حين بلغ مجموع المدة التي قضاها لنكولن في المدارس أقل من أثني عشر شهرا من حياته كلها!

وكانت ماري فخورة بأسرتها إلى أبعد حد، فأجدادها وأجداد أجدادها، وأعمامها كانوا قوادا عظاما وحكاما – وكان أحدهم سكرتيرا للأسطول – أما لنكولن فلم يكن بين أفراد أسرته وأسلافه من يبعث على الفخر. وقد ذكر مرة أن واحدا فقط من أقاربه قد زاره طيلة مدة حياته في (سبرنج فيلد)، وأن هذا الواحد الوحيد قد اتهم بالسرقة قبل أن يغادر المدينة.

كانت ماري تود من ناحية ثالثة شديدة الاهتمام بالملابس والمظاهر وأسباب الزهو، بعكس لنكولن الذي لم يكن يعير مظهره أي التفات، بل كان يحدث أن يسير في الشارع بأجد قدمي سرواله خارج حذائه الطويل، والقدم الأخرى منه محشورة داخل الحذاء!

وقد تعلمت ماري تود أن أدب المائدة من "الطقوس المقدسة" أما لنكولن فقد نشأ وتربى في كوخ عتيق قذر، وكان يقطع الزبدة بمطواته، ويأتي أفعالا وحركات كثيرة كانت تصدم ماري فتثور لها ثورة ضارية!

وكانت هي متكبرة متغطرسة، وهو وديع و"ديموقراطي".. أما في باب "الغيرة" فقد كانت تثير إشكالا إذا هو نظر مجرد نظرة إلى امرأة أخرى! كانت غيرتها من المرارة والحماقة والشذوذ بحيث تجعل الإنسان يفقد أعصابه عندما يقرأ عنها الآن!

وقد حدث بعد خطبتهما بوقت وجيز أن كتب لنكولن إليها خطابا يصارحها فيه بأنه لا يحس نحوها بالحب الكافي لأن يتزوجها، وأعطى خطابه لصديق له يدعى "جوشا سبيد" كي يوصله إليها، لكن "سبيد" مزق الخطاب وألقى به في النار، ناصحا لنكولن بأن يذهب ليرى ماري تود بنفسه.. وقد فعل، وحين صارحها بأنه لا يريد أن يتزوجها انخرطت في البكاء. ولم يكن في طاقة لنكولن أن يحتمل رؤية امرأة تبكي، فأخذها بين ذراعيه وطيب خاطرها ثم قبلها نادما مستغفرا!

وقد حدد يوم أول يناير سنة ١٨٤١ لعقد قرانهما، فأعدت كعكة الزفاف واجتمع المدعون، وحضر الكاهن، ولكن لنكولن لم يظهر، لماذا؟ لقد فسرت أخت ماري تود الأمر بعدئذ بقولها أن لنكولن أصيب بنوبة جنون. وأضاف زوجها: "نعم. لقد أصبح مجنونا فاقد الصواب!".. والحقيقة أنه كان قد أصيب في جسمه وعقله بأزمة خطيرة وغرق في بحر من الكآبة بلغ من العمق والفظاعة حدا كاد معه توازن عقله أن يختل!.. صار أصدقاءه يرونه في النهار يتمتم بعبارات متقطعة، ويقول أنه لا يريد أن يعيش، بل لقد كتب مقطوعة من الشعر عن الانتحار ونشرها في إحدى صحف (سبرنج فيلد) وبلغ قلق أصدقائه بشأنه إلى حد أنهم انتزعوا منه مطواته ليحولوا بينه وبين قتل نفسه!

وعلى أثر ذلك كتب لنكولن أفجع خطاب خطته يده، وأدعى رسائله الخاصة جميعا إلى الرثاء، وقد وجهه إلى شريكه في المحاماة – وكان وقتئذ

متغيبا – لحضور أحد المؤتمرات – وهذا هو الخطاب، بنصه الحرفي.

"إنني الآن أتعس رجل في الوجود.. وإذا وزع ما أشعر به من تعاسة على الأسرة الإنسانية جمعاء، فلن يتبقى بعد ذلك وجه واحد باسم على الأرض!.. لست أدري إذا كانت حالتي سوف تتحسن يوما أم لا، وإن كان يخالجني إحساس قوي غامض بأنني "لن أصير إلى حال أفضل.. أما أن أظل كما أنا فهذا مستحيل. ويبدو لي أنه أصبح لا مفر لي من أن أموت، إن لم تتبدل الظروف.."

وقد ظلت علاقة لنكولن بخيبته منقطعة بعد ذلك طيبة عامين، حتى أخذ أحد الوسطاء من أهل "الخير" في المدينة على عاتقه أن يصلح ما بينهما، فجمعها في مكان خاص، وفي ذلك اللقاء قالت ماري تود للنكولن أن واجبه يقتضيه أن يتزوجا!.. ففعل!

وبينما كنت في (الينوا) أضع ذلك الكتاب عن لنكولن، ذهبت لرؤية "العم جيمي مايلز" وهو فلاح يعيش بالقرب من (سبرنج فيلد) وكان أحد أعمامه ذلك المدعو "هرندون" شريك لنكولن في المحاماة، كما كانت إحدى عماته تدير فندقا صغيرا نزل فيه لنكولن وزوجته بعد زواجهما بوقت قصير. كان مستر ومسز لنكولن يتناولان طعام الإفطار ذات صباح مع باقي نزلاء الفندق، حين قال لنكولن شيئا لم يعجب زوجته، فما كان منها إلا أن تناولت قدحا مملوءا بالقهوة الساخنة وقذفت به في وجهه.. فعلت ذلك في حضور النزلاء الآخرين أما لنكولن فلم يحرك ساكنا، ولم ينبس بكلمة، حتى

أحضرت صاحبة الفندق قطعة من القماش مبللة بالماء ومسحت بها وجهه وملابسه!.. وأغلب الظن أن حوادث أخرى متشابهة ظلت تحدث في منزل لنكولن طيلة السنوات التالية..

على أننا ينبغي ألا نعول كثيرا في الحكم على مسز لنكولن، فقد انتهى بها الأمر إلى الجنون.. ويحتمل أن تكون قد أصيبت بمقدمات تلك اللوثة العقلية قبل ذلك بكثير!

ولعل أجمل ما ينبغي أن تعرف عن لنكولن بعد هذا، أنه تحمل حياته الشقية زهاء ثلاثة وعشرين عاما بدون مرارة ولا تذمر، وبغير أن يقول كلمة شكوى مما يقاسيه لأحد، لقد تحمل آلامه بتسامح بشبه تسامح المسيح، وبصبر يكاد يكون إلهيا!

كريستوف كولمبس .. أجرأ مكتشف في التاريخ

هو الرحّالة الإيطاليّ كريستوف كولومبوس، ولد في ٣١ أكتوبر سنة ١٤٥١م، في مدينة جنوة، ودرس في جامعة بافيا العلوم الطبيعيّة والرياضيات، وفي سنة ١٤٩٨م اكتشف أمريكا الشماليّة في رحلة قام بها عبر المحيط الأطلسي حتى وصل إلى جزر الكاريبي. اكتشف في ١٢ أكتوبر جزر البهاماس، والتي يطلق عليها اسم سيلفادور، وكان هذا أول اكتشاف له، وفي ٢٨ أكتوبر وصل إلى كوبا. استغرقت رحلة اكتشاف أميركا ثلاثة شهور، عاد بعدها إلى إسبانيا في١٦ ديسمبر سنة ١٤٩٢م، وتعتبر هذه الرحلة أول رحلة تستغرق هذه المدة في تلك الفترة. اكتشف جزراً جديدة، مثل جزر الأنتيل، وجزر البحر الكاريبي، وصل إلى جامايكا في شهر مايو من سنة ١٤٩٤م، وسبب رحلة كولومبس يتمثل في إيمانه بكرويّة الأرض، حيث كان يريد أن يثبت للعالم أنه يستطيع الوصول إلى قارة الهند، وقارة آسيا من جهة الغرب، وأنّ جهة الشرق ليست الطريق الوحيدة إليهما. وفي ٢٠ مايو ١٥٠٦م توفي في إسبانيا، وتم دفنه دون القيام بمراسم الجنائزية التي عهدها علماء ومكتشفو ذلك الزمان.

في الثاني عشر من أكتوبر من كل عام يحيي الأمريكيون ذكرى أهم حادث وقع في التاريخ، وهو اكتشاف أمريكا بواسطة كريستوف كولمبس.

غير أن الطريف في هذا الشأن أن كولمبس لم يكتشف أمريكا في ١٢ أكتوبر بل اكتشفها في ٢٣ من الشهر المذكور، فالتقويم الذي نستعمله الآن يرجع عهده إلى "الأب جريجوري"، ولم يسمع كولمبس بهذا التقويم أبدا، بل لم يكن له وجود في عهده، لأنه ظهر بعد موته بمائة سنة!

وقد طبعت المستعمرات الأمريكية هذا التقويم في سنة ١٧٥٢، فلما أخذوا في تطبيقه قفزوا إلى الأمام ١١ يوما بالضبط. لماذا؟ لأن التقويم كان مقدرا في ذلك الوقت بأحد عشر يوما وراء الشمس. وإذن فبناء على التقويم الحالي يكون كريستوف كولمبس قد اكتشف أمريكا لا في الثاني عشر من شهر أكتوبر، بل في الثالث والعشرين من الشهر المذكور..

كان كولمبس قد بدأ حياته في البحر في شبابه الباكر بالانضمام إلى بحارة إحدى سفن القراصنة، ولم يكن في هذا الأمر أية غرابة لأن أحسن الأسر في ذلك العصر كانت ترسل أبناءها إلى الغربة على ظهر سفن القرصان، فقد كان هذا يربي في الصبية الصغار ملكة الثقة بالنفس، وكان ركوب البحر يمكنهم من بلوغ هدفين في وقت واحد: رؤية العالم واقتصاد بعض النقود. ولم يكن في القرصنة أي عار، اللهم إلا في حالة القبض على القرصان، فعندئذ تكون الطامة الكبرى!

وكان كولمبس قد درس في المدرسة وهو صبي كتابا لفيثاغورس يقول فيه بنظرية كروية الأرض، ومن هنا عنت له فكرة: فقد تخيل أنه إذا كانت الأرض مستديرة فلا بد أنه مستطيع أن يجد طريقا مختصرا يقود

مباشرة إلى الهند، ولو وفق إلى ذلك لأصبح ثريا!

ولكن أساتذة الجامعات وفلاسفتها الراسخين في العلم سخروا من فكرته السخيفة. ماذا؟ هل يقترح هذا الأبله المجنون الوصول إلى الهند التي تقع في أقصى الشرق، بالإبحار مباشرة إلى الغرب؟ كيف ذلك؟.. إن الرجل لا شك مخبول! وهكذا قالوا له وأعادوا أن الأرض ليست كروية بل مسطحة، وحذروه من تنفيذ فكرته التي لو أقدم عليها لكانت انتحارا! بل لقد نبهوه إلى أن مراكبه سوف تمضي إلى آخر الدنيا وهناك ستسقط في فضاء ليس له غور!

وقد حاول كولمبس طيلة سبعة عشر عاما أن يجد ممولا واحدا يقبل إمداده بالمال لتنفيذ مغامرته، ولكن دون جدوى!.. وأخيرا استولى عليه اليأس واستعد للعدول عن فكرته، فلجأ إلى أحد الأديرة في إسبانيا ليقضي بين جدرانه بقية أيامه، ولم يكن يومئذ قد بلغ الخمسين من عمره، ولكنه صادف من الصعاب والأحزان في حياته، ولا سيما خلال سنوات اليأس السبع عشرة، ما جعل شعره الأحمر يبيض كالثلج!

وأخيرا أفلحت مساعي كولمبس، فطلب البابا إلى الملكة إيزابيل ملكة إسبانيا أن تمد إليه يد المساعدة؛ فأرسلت إليه الملكة مبلغ ثلاثة عشر جنيها! فاستبد به الغضب وابتاع بالمبلغ سترة جديدة وحمارا.. ثم ذهب ليرى الملكة، وكان قد وصل إلى مرتبة من الفقر اضطر معها إلى الاستجداء أثناء الطريق!

وأمرت له الملكة بالسفن التي كان في حاجة إليها، ولكن مشكلة جديدة نشأت، فقد تعذر عليه أن يعثر على الملاحين والبحارة اللذين يبحرون بها، إذ كان الكل يهابون مسايرته في مغامرته المجهولة المدى. وأخيرا، وبعد مجهود شاق، ذهب إلى إحدى المواني فأمسك ببعض البحارة وأجبرهم على الرحيل. بينما لجأ مع البعض الآخر إلى الرجاء، فالإغراء بالمال، فالتهديد! بل لقد أطلق سراح نفر من المجرمين وعرض عليهم رد حريتهم إليهم إذا هم قبلوا السفر معه! وأخيرا أتم العدة لكل شيء، وقبل شروق شمس يوم الجمعة ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ بنحو نصف ساعة، أقلع كولمبس بسفنه الثلاث ورجاله البالغ عددهم ثمانية وثمانين، في رحلة من أهم الرحلات وأعظمها أثرا في تاريخ العالم!

لكن المغامر الطموح لم يجد في المستعمرات التي اكتشفها وأسسها في العالم الجديد إلا خيبة الأمل والمصائب، فقد قتل أهل المستعمرة الأولى جميعا بيد الهنود الحمر. وبلغ الحسد بحاكم المستعمرة الثانية حدا جعله يتهم كولمبس بارتكاب شتى أنواع الجرائم حتى قبضت عليه السلطات وأعيد إلى إسبانيا مصفدا في الأغلال!.. ولكنه ما كاد يصل إلى إسبانيا حتى أخلى سبيله، وبرغم ذلك فإن حزنه وخيبة أمله من جراء ما أصابه تركته كسير القلب مكلوم الفؤاد..

ومات كولمبس، في سن الستين، مجهول القدر من الناس، محروما من كل تكريم أو شكران. مات في حجرة رثة، رديئة التهوية، علقت على

جدرانها تلك الأصفاد التي صفد بها في السجن، وقد احتفر بها تذكارا محزنا لما تحفل به الدنيا من غرور وعقوق!

لقد أتم كولمبس عملا من أدهش وأجرأ الأعمال في التاريخ ومع ذلك فما الذي أفاده منه؟ إنه كان يتوقع أن يقتني من اكتشافه ثروة، فمات معدما. ومني في وقت من الأوقات بلقب أمير المحيط، ونائب الملك في الهند، ولكنه لم يحصل على شيء من أمانيه هذه.. حتى القارة التي اكتشفها لم يطلق اسمه عليها بل سميت باسم صانع خرائط اسمه "أمريكوفسبوتشي"! وهكذا نجد أن الشيء الوحيد الذي عاد على كولمبس من اكتشافه العالم الجديد هو انكسار القلب والتحقير!

وحتى الإحساس بالرضا والزهور باكتشافه قارة جديدة، لم يتحقق له، فقد ظن أن ما اكتشفه لم يكن سوى طريق جديد إلى الهند ليس غير! وكان ذلك هو السبب الذي من أجله أطلق اسم "الهنود الحمر" على السكان ذوي البشرة الحمراء الذين وجدهم في أمريكا!

ومع ذلك فقد نال كولمبس تعويضا واحدا: فقد عزى إليه الفضل في أن يكون أول رجل اكتشف أمريكا، بينما هو لم يكن كذلك على الإطلاق!.. فقبل أن يولد بألف عام، اكتشف أمريكا كاهن بوذي من الصين اسمه "هو – شن"!.. ثم قبل مولد كولمبس بخمسمائة عام، تمكن رجل آخر اسمه "ليف أريكسون" من اكتشاف أمريكا بدوره. ولم يزل في مقدورك أن ترى ما يعتقد المؤرخون أنه خرائب المنازل التي بناها

"ليف أريكسون" على شواطئ نهر (تشارلس) في ولاية "ماساشوستس" – وتقع هذه الخرائب على مسيرة أقدم من جامعة هارفارد المشهورة!

لكن التاريخ سيشرف اسم كولمبس إلى الأبد، كرجل له شجاعة الأبطال وتصميمهم الذي لا يعتوره وهن.. فعندما رغب الجميع في الإقلاع عن الفكرة التي نادى بها، أصر هو عليها، وعندما أصبح بحارته مثار رعب له، فهددوه بالتآمر عليه – بل وبقتله – إذا لم يعد أدراجه.. ظل كولمبس يجيبهم جوابا واحدا لا يتغير، هو: "أبحروا. أبحروا. أبحروا"!

كليوباترة .. حياتها أسطورة

ولدت كليوباترة، الملكة المصرية حوالي سنة ٦٩ قبل الميلاد، وشاركت أخاها بطليموس وراثة عرش مصر وهي في السابعة عشرة من عمرها، على أنها سرعان ما حرمت من حقوقها واضطرت للفرار إلى سوريا لخلافها مع أخيها.

عندما غزا يوليوس قيصر مصر، دبرت حيلة للقائه في الإسكندرية، ففتنته وأقنعته بأن يساعدها في القضاء على أخيها والانفراد بالعرش، حتى إذا عاد قيصر إلى روما، رافقته حيث عاشت خليلة له أمام الملأ، وأنجبت منه ولدا. ثم اغتيل ففرت عائدة إلى مصر.

وتزوجت من مارك أنطونيو، حيث أنجبا ثلاثة أطفال، ثم ضج أهالي روما من انصراف أنطونيو إلى غرامه، فأوفد أوكتافيوس لتأديبه، بعد هزيمتها لاذت كليوباترا بضريح كانت قد شيدته لنفسها. وظنها أنطونيو قد غدرت به وهجرته فانتحر، وأراد أوكتافيوس أن يأخذها إلى روما كأسيرة له، ولكنها انتحرت بأفعى تركتها تلدغها في ثديها.

هذا طرف من قصة أشد المعشوقات إغراء وقدرة على رفع ضغط الدم عند الرجال! لقد كان اسمها كليوباترة، ملكة مصر وإلهتها.. كليوباترة ساحرة وادي النيل! ماتت منذ ألفي عام، ولكن شهرتها لم تزل

تتأجج لامعة عبر القرون.. انتحرت في سن التاسعة والثلاثين، ومع ذلك ففي زحمة نصيبها القصير من الحياة، استحوذت واستولت على حب رجلين من أعظم وأشهر من ذرع وجه الارض من البشر: "مارك أنطونيو" و"يوليوس قيصر"، والأخير منهما هو الذي نشرفه في كل مرة تنطق فيها باسم شهر يوليو الذي سمي هكذا تخليدا لذكره! وقد غزا قيصر العالم تقريبا، ولكن كليوباترة الصغيرة غزته هو! والقصة التي تروي لنا كيف تمكنت من ذلك، تعتبر من الحوادث التاريخية المثيرة:

فعندما زحف قيصر على الإسكندرية، في السنة الثامنة والأربعين قبل ميلاد المسيح، كانت كليوباترا في مركز سيئ، فإن عرشها كان قد انتزع منها، ولم يكن لديها مال. وكان خطر جسيم يهددها بقطع رأسها، فقد تزوجت من أخيها ولكن نشب بينهما نزاع عائلي، فأعلن عليها الحرب. وإذ ذاك اضطرت إلى الفرار لتنجو بحياتها!

وأصدر قيصر أمره إليها بالمثول أمامه، ولكن كيف تستطيع ذلك؟ كانت هذه هي المشكلة، فالإسكندرية كانت موبوءة بجواسيس أخيها المنبثين فيها، والقبض عليها كان معناه قتلها في الحال!

ومن ثم ففي إحدى الليالي المظلمة، تسللت في قارب صيد صغير، وجعلت خادمتها تربطها وتلفها في بساط حمل في القارب إلى القصر، وهناك فك البساط أمام عيني قيصر الجبار! وعندما وثبت كليوباترا خارجة من البساط، وأخذت في الضحك والرقص متنقلة في

أرجاء الغرفة، دفع منظر جسمها البديع الدم حارا دافقا في عروق قيصر، حتى لقد فغر فاه مدهوشا!

كان قيصر يزهو بأنه من سلالة فينوس، إلهه الحب، ومن ثم كان يعتز بأن يكون حكما في مفاتن النساء، ولكن الذي أبصره لحظتها كان شيئا جديدا خارقا، يبهر الأنفاس! قال لنفسه: "وا عجباه! وا عجباه! مما هذا؟! منذ متى كان يوجد مثل هذا؟! ولماذا لا تكون عندنا في روما بنات من هذا الطراز!"

كان عاهل الرومان في الرابعة والخمسين من عمره، أصلع الرأس، بينما كانت كليوباترا تتدفق حيوية وشبابا: شباب العشرين فما أن تطلع قيصر إليها حتى أحس بأن موجة مد وجزر قد رفعته إلى ذروة متلاطمة بالحب والإعجاب العنيف. وهكذا أمكنها بحرارة مشاعرها، ولمعان ذكائها، أن تجعل من قيصر عبدها الخاضع مدى الحياة! واستمع قيصر إلى شكواها: إذن فأخوها يبغي قتلها؟ ويحه! وأقسم قيصر أن يلقن ذلك الشاب المتغطرس درسا لن ينساه، فكان أن زحف على رأس جيشه الروماني إلى حيث التحم مع الجيش المصري فأباده عن بكرة أبيه وطارد شقيق كليوباترا إلى ضفاف النيل حيث ابتلعته الأمواج! ومنذ ذلك الوقت أصبحت كليوباترا ملكة مصر بغير منازع، وتوطدت سيطرتها على أرض الفراعنة من أقصاها إلى أقصاها!

وتوالت الشهور، وأنجبت كليوباترا لقيصر ولدا هو الولد الوحيد الذي رزقه في حياته! ولما كانت لقيصر زوجة تركها وراءه في روما، فإنه

بالطبع لم يستطع أن يتزوج من كليوباترا، فلقد كان ذلك كفيلا بأن يثير عليها لفظ الألسنة، ومن ثم فلكي تكمم الفضيحة وتجعل الابن في مركز شرعي، لجأت كليوباترا الي مناورة بارعة: أمرت الكهنة بأن يعلنوا أن يوليوس قيصر لم يكن إنسانا من البشر.. كلا! بل كان إلها! إنه ليس غير "آمون" إله الشمس قد تجسد وعاد إلى الأرض في صورة قيصر، لينجب نسلا للملكة!

إن هذه القصة تبدو لي الآن ساذجة سخيفة، ولكن الناس في مصر صدقوها منذ ألفي عام!.. (وأعتقد أنه كان سيصبح من العسير على كليوباترا أن تجد أناسا يصدقون هذه الخرافة لو أنها حاولت ذلك الآن!)

بعد هذه الأحداث بوقت قصير، قتل قيصر غيلة، وأصبح مارك أنطونيو، الدائم الصخب، الغارق في الديون، والذي لا يفيق من الشراب، سيد الرومان ومولاهم.. وإذ أثملته خمرة انتصاره على منافسيه، سير جيوشه إلى الشرق حيث عاش يعيث في الأرض فسادا ونهبا وسلبا!

وكانت مصر أغنى بلد في الشرق، فقال له أتباعه مرة وهو في وعيه: "أنصت إلينا.. فلنمض قدما إلى الإسكندرية، لنقطع رأس كليوباترة ونغترف من خيرات مصر!"

ومضوا.. وارتعدت أوصال كليوباترا: كيف يتسنى لها أن تصد زحف أنطونيو؟ بالأسطول والسلاح؟ مستحيل! أم بالحب والقبلات؟ نعم، ربما يفلح هذا السلاح! وهكذا، بما جبلت عليه الماكرة من حيلة، وعبقرية

مسرحية، اتخذت أهبتها لملاقاة أنطونيو في سفينة موشاه بالذهب، ذات أشرعه أرجوانية، وقد أحاطت نفسها بالأبهة والبهرج اللذين ذكرا في ألف ليلة وليلة، ورافقها صبية صغار تزيوا بزي كيوبيد، وزينوها هي برياش الطاووس، بينما العذارى الفاتنات، المدثرات بالدمقس، كن يرقصن على نغمات موسيقى الصحراء الضارية، وقد أسكر عبير البخور الحواس.. وفي وسط هذا السحر الشرقي اضطجعت كليوباترا على وسادة من الحرير وقد اتخذت وضع "فينوس" إلهة الحب، فبدت ساحرة، فاتنة، لا تقاوم!

ترى، ماذا كنت تصنع لو كنت أنت مارك أنطونيو؟ إن ما فعله كنت أفعله أنا لو كنت مكانه: فلو فرضنا أنه كان طريح الفراش بسبب إصابته بالروماتزم، أو زاهدا في النساء، لما استطاع أن يقاوم فتاة كهذه – والواقع أنه لم يفكر حتى في المحاولة! – فما بالك ومارك أنطونيو كان جنديا خشنا، متوحشا، فظا، وكان يقيم سهرات ماجنة لنساء متكهتات، وشراذم من الأفاقين، مما آثار اشمئزاز روما نفسها؟!

وهكذا غدت كليوباترا، المرأة ذات الأصل العريق، والإنسانة المثقفة المهذبة.. المرأة التي تحفظ الشعر وترويه. هكذا غدت كليوباترا.. خليلته!

لقد كان ولعه بها أول لمسة من لمسات السمو والجمال أحس بها في حياته الصاخبة، فلقد ألهمته الإخلاص والوفاء بطريقة لا تزال تستثير إعجابنا منذ أكثر من عشرين قرنا!

ولقد عرفت كليوباترا كيف تسوسه، فلم تتذمر من مسلكه، وإنما فعلت كل ما أرادها هو أن تفعله: قامرت معه، ورافقته في رحلات صيد الحيوانات والأسماك. وأحيانا كانت تتنكر في زي عبد وتجوس معه خلال الشوارع في الليل. وتحت تأثير الخمر كانت تقتحم معه بيوت رعاياها، وتسحب الكراسي من تحت الجالسين عليها، وتداعبت دعابات عنيفة، وذات مرة بينما كانا يصطادان السمك، شكا لها أنطونيو من أنه لم يصطد شيئا، فأمرت كليوباترا أحد خدمها بأن يغوص تحت القارب وأن يضع سمكة مملحة في سنارته، رغبة منها في إرضاء غروره وإدخال السرور على نفسه!

وقد تملقت كليوباترا "معدة" أنطونيو وحرصت على العناية بطعامه، إلى حد أنها أعدت عددا من الطهاة وأمرتهم بأن يكونوا على استعداد لتقديم وجبة فاخرة ساخنة في أية "لحظة" من الليل أو النهار يطلب فيها أنطونيو طعاما، وقد افتتن أنطونيو بها الى حد أفقده كل مظاهر التعقل، فمنحها كل شاطئ فينيقا كهدية، ثم قدم لها مقاطعة (أريحا) كهبة، وكذلك جزيرة قبرص، وجزيرة كريت، وأخيرا بلغ الذروة في إسرافه فتنازل لها عن كل آسيا الصغرى!

أثارت أخبار كل هذه المنح والهدايا روما وجعلتها تغلي بالحقد والغضب. ماذا؟ أتذهب كل هذه الأصقاع التي اكتسبت بمئات المعارك ودفع ثمنها من الدم الروماني، فيودي بها كشيء تافه لا قيمة له، لمجرد

إشباع نزوات محظية مصرية؟ لقد كان الجواب هو الحرب. وها قد دنت ساعة كليوباترا. لقد أسرفت في تصرفاتها. وها هي ساعة الحساب قد حلت، وإذا بروما وقد وثبت في غضبة قوية وحطمت مراكب أنطونيو وكليوباترا وشتت شمل جيوشهما!

وكانت هذه هي الخاتمة، وكانا هما يعرفان ذلك، وقد قدر أنطونيو أنه سوف يقبض عليه ويقطع رأسه.. ومن ثم آثر الانتحار، فطعن نفسه بحربة، ولاقى النزع الأخير بين ذراعي كليوباترا التي ظل متعلقا بها في الموت كما تعلق بها في الحياة! وقد آلت كليوباترا على نفسها ألا تقع في قبضة أعدائها حتى لا تقاد مكبلة بالأغلال في شوارع روما أمام جمهور الدهماء.. فانتحرت بدورها، بأن تعاطت سما، ولكن كيف فعلت ذلك؟

لم يستطع أحد أن يجزم بما حدث، حتى الذين عثروا عليها بعد موتها بعشرين دقيقة لم يستطيعوا حل هذا اللغز. فبعض الساسة يظنون بأنها قد جرحت نفسها ثم صبت في الجرح سم الثعبان. والبعض يقول بأن ثعبانا قد دس لها في سلة زهور وأنها تركت الثعبان يلدغها في صدرها، وهي ترقد اليوم بجوار مارك أنطونيو في مكان ما بمصر والمكان الذي دفنا فيه لم يزل لغزا حتى الآن! فإذا ذهبت إلى الإسكندرية وعثرت على قبرها فإنك ستكون من المحظوظين، وسيتألق اسمك على أعمدة بارزة من الصفحات الأولى في كل صحيفة كبرى من صحف العالم!

الرئيس ويلسون .. القديس أحبه العالم.. ثم كرهه!

"توماس وودرو ويلسون" هو الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة، ولد في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٥٦ بولاية فرجينيا، درس القانون وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والتاريخ. في عام ١٨٩٠ بدأ بالتدريس في جامعة برينستون وعمل كرئيس للجامعة بين عامي ١٩٠٢ و١٩١٠.

دخل عالم السياسة في عام ١٩١٠ عندما أصبح محافظا لولاية نيوجرسي عن الحزب الديمقراطي. تمَّ اختيار ويلسون كمرشحٍ رئاسي للحزب الديمقراطي في انتخابات عام ١٩١٢ وربح الانتخابات بسهولة. عندما بدأت الحرب العالمية الأولى اتبع ويلسون سياسة الحيادية في البداية ولكنه أُجبر بعد ذلك على دخول الحرب بسبب حرب الغواصات المفتوحة الألمانية.

في ٨ يناير سنة ١٩١٨ أعلن مبادئه الأربعة عشر التي اتخذت أساسا لمعاهدة الصلح، برغم تحذير الأطباء. وبسبب دوره الرئيسي في تأسيس عصبة الأمم حصل ويلسون على جائزة نوبل للسلام لعام ١٩١٩.

وعند عودته من رحلته الثانية قام بجولة في أمريكا دعا فيها للاشتراك في عصبة الأمم، ولكنه سقط مشلولا في منتصف الجولة وظل في مرضه حتى مات في ٣ فبراير سنة ١٩٢٤.

أي نوع من الرجال كان "ودرو ويلسون" في حقيقته؟ لقد أطلق عليه البعض أنه نابغة فذ، بينما نعته آخرون بأنه أكبر فاشل!.. كان يحلم برؤيا عذبة للسلام العالمي – تتمثل في عصبة الأمم – فكرس على مذبح هذه الرؤيا كل ذرة من حيويته وقوته ومواهبه.. لكنه مات أخيرا رجلا محطما، على يد مثله العليا ذاتها!

وعندما أبحر ودرو ويلسون إلى أوربا سنة ١٩١٩ لقبه الناس بمنقذ الأجيال؛ فقد رفعته أوربا الدامية إلى مصاف الآلهة، كما أوقد الفلاحون الذين عضهم الجوع الشموع أمام صورته، رافعين صلواتهم إليه كما لو كان قديسا!.. بل لقد خر العالم ساجدا تحت قدميه، ومع ذلك فقد عاد بعد ثلاثة أشهر رجلا محطما مخذولا، بعد أن فقد صداقة الكثيرين وربح عداوة مائة مليون نفس!

إن التاريخ يصور لنا ويلسون في صورة "المدرس" المثالي: في برود طبعه، ووقاره، وافتقاره إلى عنصر الحرارة الإنسانية! في حين أنه كان في حقيقته على النقيض من ذلك، إنسانيا إلى أطراف أصابعه، ظامئا إلى توطيد الصداقة بين بني البشر.. لكن خجله الفطري هو الذي حال – لنكد الطالع – بينه وبين الظهور بمظهره الحقيقي، وفرض عليه العزلة والانفراد.. وقد عبر عن ألمه لهذا الطبع الذي فطر عليه بقوله: "إني على استعداد للتضحية بأي شيء في الوجود في نظير أن أكون مختلفا عما أنا، ولكن لا سبيل إلى خلق شخصيتي من جديد!"

وقد استطاع ويلسون في مناسبات نادرة أن يتغلب على طبيعته التي أبغضها: من ذلك أنه قفز يوما من منصة الأساتذة في مباراة لكرة القدم أقامتها جامعة (وسليان) التي كان مدرسا فيها، كي يقود جموع المهللين للفريق المنتصر.. وعندما كان في (برمودا) خرج للتجديف في أحد الزوارق، لمجرد الاستمتاع بالثرثرة مع بحارة الزورق الزنوج

ويعتبر ودرو ويلسون أكثر رؤساء الجمهورية الذين جلسوا في البيت الأبيض ثقافة واطلاعا، مع أنه ظل إلى سن الحادية عشرة يجهل القراءة والكتابة!.. وقد كانت مادته المفضلة للمطالعة في أوقات راحته هي القصص البوليسية. وقلما كان يهتم بالفنون، حتى لقد قال مرة أنه يفضل شراء صورة ملونة من ذات الستة بنسات على رسم بالفحم من ريشة الفنان العالمي "هويسلر"!

بل إن هذا الأستاذ الذي أنفق حياته في البيئة الجامعية المتزمتة، اعترف مرة بأنه يفضل مشاهدة كوميديا موسيقية مرحة على حضور تمثيلية لشكسبير، بحجة أنه لا يذهب إلى المسرح ليتزود بالثقافة والعلم وإنما ليروح عن نفسه من عناء العمل. وأثناء إقامته بالبيت الأبيض كان يتردد على مسارح "الفودفيل" الغنائية بانتظام مرة كل أسبوع على وجه التقريب..

وقد عاش ويلسون أكثر حياته فقيرا، فإن مرتبه كمدرس كان ضئيلا إلى درجة اضطرت معها زوجته إلى أن تعمل في تلوين الصور الشمسية وبيعها كي تساهم في مواجهة نفقات الأسرة. وفي بداية عهده بالتدريس

لم يكن ويسلون يملك أن يشتري لنفسه ثيابا لائقة.. وفي مستقبل أيامه كان شبيها بسلفه "لنكولن" في عدم اهتمامه بمظهره الخارجي!.. من أمثلة ذلك أنه وهو رئيس للجمهورية ألح عليه خادمه الخاص كي يرسل سترته القديمة إلى الخياط لتغيير الشريط (الساتان) الذي يكسو حوافها، فأجابه ويلسون: "كلا لا داع لذلك ففي وسعي ارتداؤها على هذه الحال سنة أخرى"

ومثل لنكولن، كان ويلسون المذكور عديم الاهتمام بالطعام، فكان يأكل كل ما يقدم له، بل كثيرا ما كان يبدو أنه لا يتذوق ما يأكله. وهو لم يدخن سوى سيجارة واحدة في حياته، أو قل لم يدخن سيجارا بأكمله. وقد أصيب بدوار قبل أن يتمه!.. والشيء الوحيد التي كان فيها مسرفا مبذرا هو شراء الكتب..

وتحت ذلك المظهر الخارجي "الجامد" كان ودرو ويلسون يلتهب حماسة وعاطفة، ويقول الذين اختلطوا به عن قرب أنه كان يفوق "تيودور روزفلت" في حدة طبعه. وقد كان شغفه بزوجته الأولى حارا ملتهبا، وكان من أول أعماله على أثر فوزه برئاسة الجمهورية شراؤه هدية ثمينة لزوجته! وعندما وافتها منيتها بعد عام واحد من ذلك التاريخ أصر على الاحتفاظ بجثمانها في البيت الأبيض لمدة ٧٢ ساعة، بل أمر بوضعها على أريكة وظل ملازما لها ثلاثة أيام بلياليها!

ومع أنه كان عملاقا في قوته الذهنية، فإنه لم يكن يملك ناصية

اللغة، بل كان يجهل الكثير من التعبيرات الأدبية، كما كان يمقت العلوم، ولا يبالي بالفلسفة، وقد بدأ حياته باحتراف مهنة المحاماة، ولكنه فشل فيها فشلا ذريعا، بل لم يستطع أن يستقل بالمرافعة في قضية واحدة طيلة حياته، ولم يعهد إليه بإدارة أمواله سوى موكل واحد: والدته!

وأكبر الظن أن أكبر نقص في صفات ويلسون كان افتقاره إلى الكياسة والدهاء، في القول والعمل. وقد كانت أمنيته الوحيدة منذ نشأته أن يصير من رجال الحكم والسياسة، وكم من مرة أغلق على نفسه باب مخدعه وراح يتدرب على الخطابة ومواجهة الجماهير!.. بل إنه في سبيل الوصول إلى مستوى الكمال كثيرا ما قام بأعمال وتصرفات عقيمة، مثال ذلك أنه ثبت على جدار غرفته لوحة تصور أنسب الحركات والإيماءات اللائقة، وأبلغ الإشارات التي يلوح بها كي يحدث في سامعيه التأثير المطلوب!

ومع ذلك فقد فاته أن يتعلم أول وأهم درس يلزمه، وهو كيف يعامل الناس ويسوسهم، فكانت السنوات الأخيرة من حياته سلسلة مفجعة من حوادث فقد الصداقات وصلات الود مع الكثيرين.. فقد تشاجر مع زعماء مجلس الكونجرس، وانتهت إلى القطيعة صلاته بعدد من أخلص أصدقائه – من بينهم "الكولونيل هاوس" – وأخيرا أغضب العدد الكبير من مواطنيه من فرط مطالبته إياهم بألا ينتخبوا للحكم غير الحزب الديمقراطي!

وحين رفض مجس الكونجرس قبول فكرة عصبة الأمم التجأ ويلسون مباشرة إلى الشعب، وكانت صحة الرئيس ضعيفة من البداية بحيث حذره

أطباؤه في كل مناسبة من إرهاقها أكثر من طاقتها، بأي مجهود إضافي.. لكنه تجاهل نصيحتهم، فإذا بهذا العبقري ذي العقل الجبار، الذي هزت كلماته العالم ذات يوم، ينتهي إلى حالة من الضعف والانهيار لم يكن يقوى معها على التوقيع باسمه ما لم يمسك أحدهم بيده!

وبعد اعتزاله الخدمة، تقاطر الزائرون من كافة أركان العالم على بيته الكائن في شارع "س" بواشنطون، كما لو كان كعبة أو مزارا!.. وحين رقد على فراش الاحتضار ركع الحجاج على الرصيف المواجه لبيته يبتهلون إلى الله ويصلون على روحه..

مارك توين.. ملك الأدب الفكاهي في العالم

اسمه الحقيقي صمويل لانغهورن كليمنس، ولد في قرية تسمى "فلوريدا" بولاية ميسوري في ٣٠ نوفمبر ١٨٣٥، وكان السادس في الترتيب بين سبعة إخوة لم يتجاوز منهم مرحلة الطفولة. بخلاف صمويل. إلا ثلاثة. وعندما بلغ توين الرابعة من عمره، انتقلت أسرته إلى هانيبال، وهي مدينة وميناء بولاية ميسوري تقع على نهر مسيسيبي، وقد استلهم مارك توين مدينة سانت بطرسبورج الخيالية التي ظهرت في روايتيه مغامرات توم سوير ومغامرات هكلبيري فين من هذه المدينة. وقد كانت ميسوري آنذاك من الولايات التي تتبع نظام العبودية، مما ظهر فيما بعد في كتابات مارك توين. من أشهر رواياته مغامرات التوت الفنلندي (١٨٨٥) وتعتبر الرواية الأمريكية العظيمة، ومغامرات توم سوير (١٨٧٦).

كان توين مغرماً بالعلم والبحث العلمي، وقد سجل باسمه ثلاث براءات اختراع. ويروي كتابه "يانكي من كونيكتيكت في بلاط الملك آرثر" قصة أمريكي سافر عبر الزمن ونقل معه التكنولوجيا الحديثة إلى إنجلترا في عهد الملك آرثر، وقد صار هذا النوع من قصص الخيال العلمي فيما بعد جنساً مستقلاً في أدب الخيال العلمي سمي بالتاريخ البديل. ومات من جراء مرض القلب في ٢١ ابريل سنة ١٩١٠.

أنفقت هوليوود أربعمائة ألف جنيها لإخراج فيلم عن حياة رجل من أبرز العظماء الذين أنجبتهم الولايات المتحدة، وكان يعد بحق أشهر أديب في جيله على الإطلاق، وأكثر الكتاب الفكهين حظوة بإقبال القراء في جميع الأزمان!

وقد التحق في صباه بمدرسة كانت عبارة عن كوخ خشبي من جذوع الأشجار، وظل في هذه المدرسة إلى أن بلغ الثانية عشرة، فكان ذلك هو كل التعليم المدرسي الذي حصل عليه في حياته! ومع ذلك فإن جامعتي "اكسفورد" و"ييل" منحتاه درجات الشرف، وتهافت على زمالته أقطاب الثقافة في كل بقاع العالم، واستطاع أن يجمع من تأليف الكتب ملايين الجنيهات! – ولعله جمع من المال من إنتاج قلمه ما لم يجمعه كاتب في العالمين القديم والحديث! – ورغم انقضاء أربعة وأربعين عاما على وفاته فإن سيل الذهب ما يزال يتدفق بلا انقطاع على ورثته من استغلال حقوقه في مؤلفاته، سواء عن طريق الطباعة أو السينما أو الإذاعة..

والاسم الحقيقي لهذا المؤلف هو "صمويل لانجهورن كليمنس"، ولكن العالم يعرفه باسم "مارك توين"!

وتمتاز حياة مارك توين بطابع المغامرة، فقد عاش في عصر ملئ بالأحداث الجسام الواضحة المعالم في تاريخ أمريكا. وقد ولد منذ مائة وخمسة عشر عاما في قرية صغيرة هادئة لا تبعد كثيرا عن نهر المسيسبي، وكان مولده بعد إنشاء أول خط للسكك الحديدية في بلاده

بسبع سنوات، وقت أن كان إبراهام لنكولن يعمل أجيرا زراعيا في حقل ويسير خلف محراث خشبي وهو حافي القدمين! ولقد عاش مارك توين خمسا وسبعين عاما مثيرة، ومات عام ١٩١٠ في ولاية (كونكتيكت) بعد أن كتب ثلاثة وعشرين كتابا.. وبعض هذه الكتب قد طواه النسيان، ولكن كتابين منها سيظفران بالخلود الأدبي، وسيقرأهما الأحداث في كل جيل دون أن يفقدا طلاوتهما. والكتابان اللذان نعنيهما هما "توم سوير" و"هكلبري فين"، وقد ضمنهما عصارة تجاريه بحيث يمكن القول إنه لم "يكتبهما" وإنما انفجرا منه انفجارا!

وقد ولد مارك توين في كوخ صغير من حجرتين. ولا شك أن الفلاح الأمريكي في أيامنا هذه يأنف من أن يضع مواشيه أو دواجنه في حظيرة كالكهف الذي قضى فيه مارك توين أيام طفولته! وفي تينك الغرفتين المظلمتين كان يسكن ثمانية أشخاص هم أفراد الأسرة السبعة ومعهم جاريتهم الزنجية. وكان مارك توين في طفولته سقيما نحيلا، بحيث لم يكن مقدرا له أن يتجاوز الشتاء الأول حيا! وحين كبر الصبي صار مشكلة محيرة، فقد اعترفت أمه بأنه سبب لها من التعب والإرهاق أكثر من باقي أفراد الأسرة مجتمعين. كان يمقت المدرسة أشد المقت، فكان لهذا السبب يهرب من البيت ويهيم على وجهه نحو شواطئ نهر المسيسبي، مفتونا بمناظر النهر الجبار، بجزائره الغامضة الخلابة، والزوارق التي تتهادى برفق على مياهه، معجبا بتياره القوي وهو يجري

بعنف إلى البحر، وقد استهواه النهر كما ذكرنا فكان يجلس على ضفافه ساعات طويلة، وقد أطلق العنان لأحلامه! وبلغ من حبه للمجازفة أن أشرف على الغرق فيه تسع مرات متتالية. ولكن فيما هو يلعب لعبة الهنود الحمر والقراصنة، أو يطوي الخلاء الرحيب باحثا عن المغاور والكهوف، أو يأكل بيض السلحفاة، أو يخاطر بعبور النهر في زورق صغير.. كان في الوقت نفسه يختزن في ذهنه التجارب والمعلومات القيمة عن كل تلك المناظر والشخصيات الحية التي خلدها فيما بعد في كتابيه العظيمين اللذين أسلفنا الإشارة إليهما..

ولقد ورث مارك توين عبقريته في الفلسفة الساخرة الضاحكة عن أمه، فلئن كان قد صرح مرة بأنه لم ير أباه يوما يبتسم، فإنه وهو يروي سيرة أمه شهد بأنها "كانت ذات موهبة فذة نادرة في الرجال – ومعدومة في النساء! – هي القدرة على إضحاك الناس بكلام لا تدري أن فيه ما يضحك!" وهذه الموهبة التي ورثها مارك توين عن أمه جعلته من أشهر أمراء الفكاهة في كل العصور، وهيأت له أسباب الثراء العريض سواء من كتبه أو محاضراته وخطبه!.. والحديث عن أمه يذكرنا بأنها كانت من ذوات القلوب الرقيقة والشعور المرهف؛ فكانت تشفق من قتل الذباب، وتزجر القطط إذا ناوشت الجرذان! وعندما زاد عدد القطط الصغيرة في البيت ذات يوم عن القدر المطلوب، بحيث رأت أن لا مفر من إغراق بعضها، أدفأت لها الماء الذي أغرقتها فيه حتى تموت بسلام!

وحين بلغ مارك توين عامه الثاني عشر، دهمه القدر بوفاة أبيه، وأمام هذه الصدمة القاسية أنبه ضميره على تمرده وعصيانه وعدم انصياعه لرغبات أبيه، فذرف دموع التوبة نادما.. وعندئذ قالت له أمه مواسية مشجعة: "إن ما مضى قد مضى يا ابني ولم يعني أباك في كثير أو قليل، ولكني أريد منك وعدا".. فقاطعها الصبي قائلا: "إني على استعداد لأن أعدك بأي شيء تطلبين، إلا الذهاب إلى المدرسة!"

وأمام كراهيته للمدرسة لم تجد العائلة مناصا من الحاقه بمطبعة، لاعتقادها أن هذا العمل سيتيح له أن يكسب عيشه ويثقف عقله في آن واحد! وكان أجره في العامين الأولين لا يتعدى نفقات طعامه وملابسه.. لكنه خرج ذات يوم إلى شوارع مدينة هانيبال بولاية (ميسوري) فرأى قصاصة ورق ملقاة على قارعة الطريق، فتناولها وأخذ يقرأ ما جاء بها.. وكان لهذا الحادث الصغير، برغم تفاهته، أقوى أثر في تغيير مجرى حياته، لأن هذه القصاصة كانت صفحة ممزقة من سيرة جان دارك. واتفق أن هذه الصفحة كانت تسرد قصة سجنها في حصن (روان).. فحركت المظالم التي قاستها الفتاة الباسلة مشاعر مارك توين وجعلته يتساءل: "من تكون جان دارك؟" ولم يهتد إلى جواب، فإنه لم يكن قد سمع بها من قبل. ولكن منذ تلك اللحظة أخذ يبحث عما كتب عنها ويلتهمه التهاما، وظل الشغف بسيرتها قويا جارفا في نفسه قرابة نصف حياته، حتى لقد وضع عنها بعد هذا الحادث بستة وأربعين عاما كتابا سماه

"ذكريات عن جان دارك".. وقد رأى أن الكتاب إذا حمل اسمه فسوف ينظر إليه الجمهور نظرتهم إلى كتاب فكاهي، في حين كان همه أن يراه الناس جدا لا هزل فيه، ومن ثم أخرجه غفلا من اسمه!

ويقول "ألبرت بيجلو باين" الذي وضع سيرة حياة مارك توين في أربعة مجلدات، أن عثوره على تلك الصفحة من حياة جان دارك أيقظ فيه شغفا بدارسة التاريخ وألهب فيه حب الاطلاع، فصار ذلك أبرز طابع في حياته العقلية وظل ملازما له حتى اليوم الأخير من حياته. ومنذ وقعت في يده تلك الورقة، دخل اسمه في سجل الصفوة المختارة من ذوي العقول الجبارة!

ومن أطرف ما يؤثر عن مارك توين، إنه كان في شئون المال أجهل من دابة، وكانت تستهويه المشروعات الخيالية المتعذرة النجاح!.. من ذلك أنه قرأ مرة كتابا عن تجارة الكاكاو، فسيطرت عليه فكرة شراء الكاكاو من مواطن زراعته في الأحراش القائمة عند أعالي نهر الأمازون بأمريكا الجنوبية، وكان يمني نفسه بجمع ثروة طائلة من هذه التجارة التي لا يعرف عنها شيئا!.. وحين فكر في هذا "المشروع" لم يكن يملك قليلا أو كثيرا من المال اللازم للقيام بالرحلة الطويلة، كما كانت تواجهه عقبات أخرى كثيرة: فهو لو استطاع الوصول إلى منابع الأمازون فهيهات له أن يتفاهم مع السكان الذين يجهل لغتهم!.. وربما فتكت به الحمى في تلك المناطق الحارة.. ولكن برغم ذلك كله فإليك ما حدث فعلا – ولو أنه يبدو بعيد التصديق: عثر صاحبنا يوما في أحد الشوارع على ورقة

من فئة العشرة جنيهات، فما أن التقطها حتى شرع من فوره في رحلته المنشودة إلى نهر الأمازون!.. وطبيعي أن هذا المبلغ الضئيل نفد منه قبل أن يقطع مرحلة من الطريق، فاضطر إلى قطع رحلته!

وقد ربح مارك توين فيما بعد أموالا طائلة من كتبه ومحاضراته، ولكنه كلما أراد أن يوظف ماله في أي مشروع، كان يرجع بخفي حنين!.. وإليك أمثلة أخرى "واقعية" لمشروعاته الخيالية:

سجل مرة اختراع آلة لتوليد البخار، ولكنها أصيبت بالعقم فلم تولد شيئا!

وساهم في شركة لتجارة الساعات، فلم تقو على الاستمرار حتى نهاية عامها الأول!

وفتح دارا للنشر فأفلست، بعد أن خسر فيها ٣٢ ألف جنيها!

وأنشأ مسبكا للحروف، فعاد عليه بخسارة تقدر بأربعين ألف جنيه!

وذات يوم التقى بمخترع شاب هو "الكسندر جراهام بل"، فحاول المخترع استمالته لاستثمار ماله في اختراع حديث يدعى "التلفون"، وأخذ يشرح له منافع هذا الاختراع بقوله: "إنك بفضل التلفون تستطيع وأنت جالس على مقعدك المريح في منزلك أن تخاطب – بواسطة سلك ممدود – صديقا لك يبعد عنك بخمسة شوارع!".. فأطلق مارك توين ضحكة سخرية عالية وأجابه: "قد أكون غبيا يا عزيزي، ولكني لست من

الجنون بحيث ألقى مالي في أسلاك تتكلم. يا له من اختراع سخيف!"

ولو كان مارك توين أقبل على شراء ما قيمته مائة جنيه فقط من أسهم شركة التلفون التي عرضت عليه يومئذ، لبلغت قيمة هذه الأسهم وحدها اليوم ملايين الجنيهات!.. لكنه عوضا عن ذلك أقرض المائة جنيها لصديق ما لبث أن أعلن إفلاسه بعد أن استلم النقود بثلاثة أيام!

وفي عام ١٨٩٣، وهو في الثامنة والخمسين، وجد مارك توين نفسه غارقا في بحر من الديون.. وكانت البلاد ترزح تحت وطأة كارثة مالية، وهو يشكو اعتلال صحته، وكان ميسورا له أن يتخلص من ديونه بإعلان إفلاسه، ولكن شرفه أبى عليه إلا أن يرد لدائنيه كل مبلغ في ذمته! وإذا صح العزم وضح السبيل، وقد اتضح له السبيل لتسديد ديونه يومئذ عن طريق تأليف الكتب والقيام برحلة حول العالم لإلقاء المحاضرات، وقد كان، فبالرغم من اعتلال صحته وزهده في المحاضرات، فإنه قضى خمس سنوات يطوف أنحاء العالم ويحاضر عشاق أدبه حيثما ألقى ترحاله، كي يسدد ما عليه من ديون! وكللت الرحلة بنجاح فاق كل انتظار، حتى لقد تعذر إيجاد قاعات فسيحة الأرجاء تتسع لكل الجماهير التي احتشدت لسماعه!.. وعندما سدد آخر ديونه، كتب هذه العبارة: "أشهر الآن بالسلام يغمر قلبي بعد أن انزاحت الديون عن كاهلي. ومنذ اليوم لن يكون العمل عناء ومشقة، بل لونا من ألوان المتعة واللذة!"

لكن حظ مارك توين في الحب كان سعيدا موفقا، بقدر ما كان حظه تعسا في شئون المال! فقبل أن تقع عينه على الفتاة التي تزوجها، هام حبا بصورتها، وقد حدث له ذلك وهو يقوم برجفة إلى الأرض المقدسة، وهي الرحلة التي أثمرت كتابًا له سماه "الأثرياء في الخارج"! ففي أحد الأيام، وهو على ظهر الباخرة، زار صديقًا له في غرفته يدعى "تشارلس لانجدون"، ورأى على منضدته صورة أخته "أوليفيا لانجدون"، فراعه جمالها.. وفي مثل لمح البصر أيقن أنها الفتاة التي بحلم بها زوجة له.. فصار يكثر من زيارة صديقه طيلة مدة الرحلة ليلقي على الصورة نظرة وقار وإجلال.. ويحلم بصاحبتها!

وبعد شهور قلائل التقى مارك توين بأوليفيا لانجدون المذكورة في مدينة نيويورك. ومنذ تلك اللحظة – كما كتب في مذكراته – لم تبرح خاطره قط إلى أن فارق الحياة! وقد تم زواجه بها بحيلة بارعة أجاد حبكها: فقد دعاها أبوها لقضاء بضعة أيام في منزله بضاحية ألميرا بمدينة نيويورك.. وإذ جاء موعد انتهاء الزيارة لم يرد أن يغادر البيت، فاتفق مع سائق عربة رب الدار على أن يضع مقعد العربة في وضع يسهل معه أن ينقلب منه إلى الأرض! وعلى هذا الأساس حزم أمتعته وحيا أهل الدار، ثم صعد سلم العربة ولوح بيده مودعًا وشاكرا، وألهب الحوذي ظهر الجواد بسوطه فقفز إلى الأمام قفزة جعلت مارك توين يهوي إلى الأرض مغمض العينين، في شبه غيبوبة!.. وهرعت الأسرة إليه ورفعته من الأرض وعادت

به إلى داخل المنزل وهناك بقي ملازمًا الفراش مدة أسبوعين كاملين، ولم يكن ليشكو ألمًا ولكنه بفضل هذه الحيلة اللطيفة أمكنه الاستمتاع بمحبوبته وهي تحنو عليه وتخدمه وتبذل له من ذات نفسها.. وكانت تدعوه "الفتى العزيز"، وهو يناديها "ليفي الغالية".. وبلغ بها إعزازها لخطابات حبه أنها كانت تضعها دائمًا في حرز مقفل، وفي كل أجازة سنوية كانت تودع هذه الخطابات بأحد المصارف حرصًا عليها من الضياع!

وقد عاشت زوجته تشرف على كل ما يكتب، فإذا ما أذنت الشمس بالمغيب وفرغ مارك توين من الكتابة، حمل كل ما كتب ووضعه بالقرب من سريرها كي تطلع عليه قبل أن تنام، فتحذف منه بعض الكلمات وتستبدل بها كلمات أخرى كما يروق لها. ومهما حذفت وحورت في إنتاجه، كان هو يقابل ذلك منها بالرضى والارتياح! وكان مارك توين يفزع الفزع الأكبر من احتمال ضياع ثمار قلمه أو وضعها في غير موضعها، ولذلك لم يكن يأذن للخادم أن تقترب من مكتبه لتنظيفه! وكثيرًا ما كان يرسم بالطباشير على الأرض حدودا معينة يحرم عليها أن تتجاوزها بحال!

وإذ قطع مارك توين من مرحلة الحياة سبعين عاما، قرر أن يستكين ويخلد إلى الراحة، سيما وإن سني الشيخوخة تحول دون الإجادة والإتقان اللذين يحرص عليهما.. ومن طريف شذوذه يومئذ أنه أمر أن تحاك له أربع عشرة حلة بيضاء ومائة رباط أبيض للرقبة، وظل بقية حياته

لا يرتدي شيئًا إلا ما كان أبيض اللون، من هامة الرأس إلى أخمص القدم.. حتى ملابس السهرة أعدت له خصيصا بيضاء!

وفي الليلة التي ولد فيها مارك توين، عام ١٨٣٥، برز نجم جديد في السماء يسمى "مذنب هالي". وهذا النجم – كما يقول علماء الفلك – يعود إلى الظهور كل ست وسبعين سنة. وكانت أمنية قلب مارك توين أن يعيش حتى يظهر "مذنب هالي" مرة ثانية! وقد تحقق له أمله فكان "مذنب هالي" يضئ في كبد السماء في ذات الليلة التي مات فيها مارك توين عام ١٩١٠!.. وكان رجاؤه الأخير أن تغني له ابنته الأغاني الاسكتلندية الأثيرة عنده.. وقد حفر مارك توين على القبر الذي أعده لابنته "سوزي" هذه السطور الأربعة التي كان يجدر بأمته أن تحفرها على مثواه:

يا شمس الصيف الدافئة.. ترفقني بهذا القبر

يا رياح الجنوب الساخنة.. تلطفي معه

أيتها الأعشاب الخضراء.. لا تثقلي عليه

طاب مساؤك – أيها القلب العزيز – طاب مساؤك



الفهرس